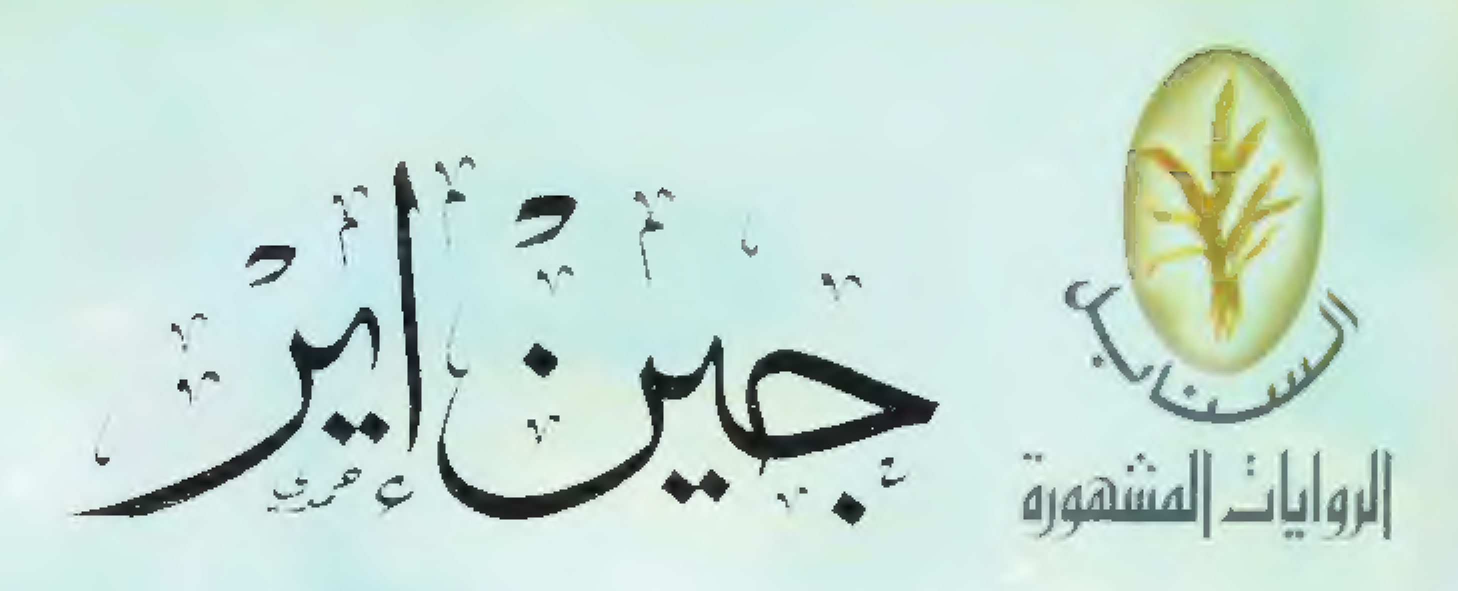

السنابل
الروايات المشهورة
جين اير

جين إير





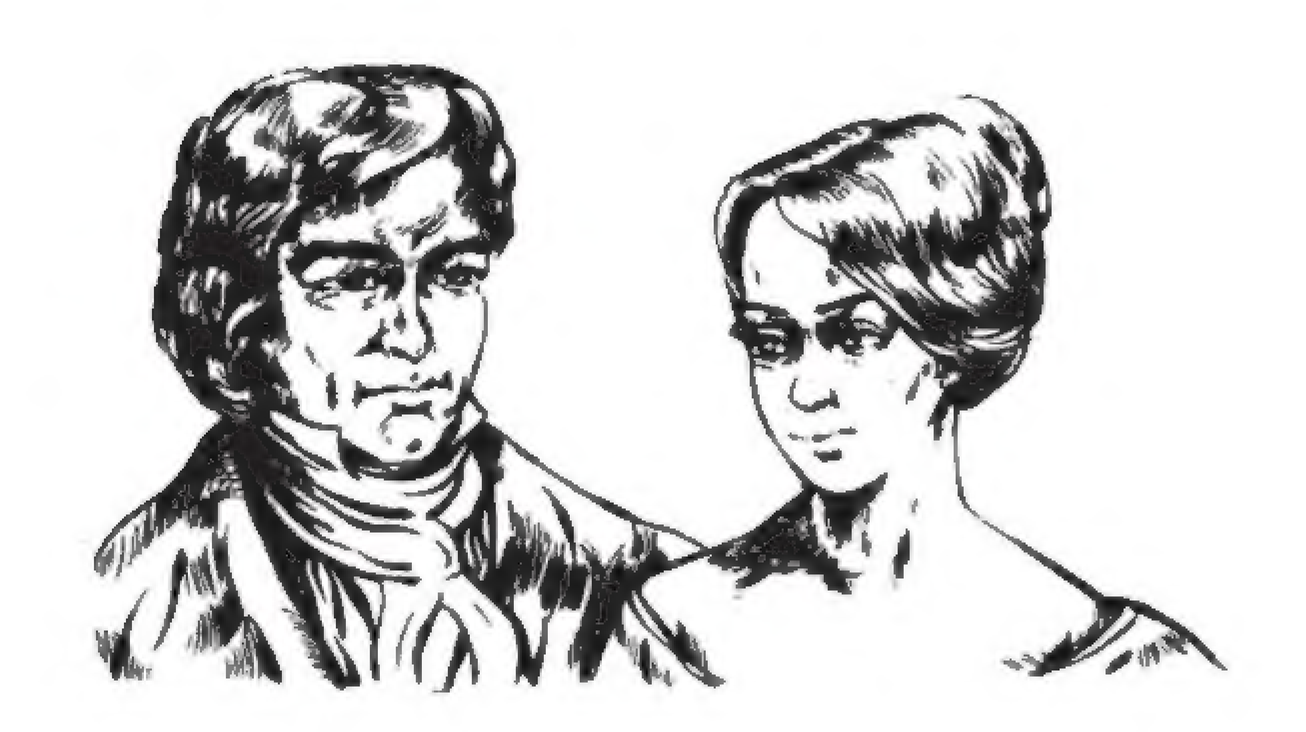
١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة

الطبعة الثانية
رقم الإيداع : ٢٢٨٧ / ٨٨
الترقيم الدولى : ٦-٤٥-١٤٤٥-٩٧٧ ISBN

طبع بمطابع دار المعارف - القاهرة



جين إير



تأليف : شارلوت برُونتي
إعداد : بهيّة كرم
رُسُوم : جلال عمران

مكتبة لبنان
بيروت

الْفَصْلُ الأَوَّلُ

كانَ يَوْمًا بارِدًا مُمطِرًا من أيّام فَصْلِ الشِّتاءِ، لِذا لَمْ يُسْمَحْ لَنا بِالخُروجِ والتَّنَزُّهِ، فَسَعِدْتُ بِذلِكَ، لِأنّي كُنْتُ أَكْرَهُ الخُروجَ مَعَ أَوْلادِ خالَتي: جُون، وَإليزا، وَجُورْجِيانا. كُنتُ ضَعيفةَ البِنْيةِ، يُصيبُني التَّعبُ قَبْلَ أَنْ يُصيبَ سِواي، وكانَ ذلِكَ مَدْعاةً لِسُخْرِيَتِهِمْ مِنّي.

لَمْ أَكُنْ أُحِبُّ خالَتي وأَوْلادَها، ولا هُمْ كانوا يُحبّونَني. لَمْ يَكُنِ الأَوْلادُ يَسْمَحونَ لي بِمُشارَكَتِهِمْ لَعِبَهُمْ وَمَرَحَهُمْ، فَكُنْتُ أُحِسُّ بِالتَّعاسةِ وَالعُزْلةِ بَيْنَهُمْ. على أَنَّهُ كانَ عَلَيَّ أَنْ أَعيشَ بَيْنَهُمْ فَقَدْ نَشَأْتُ يَتيمةً، وَلَمْ أَكُنْ أَعرِفُ أَقْرِباءَ سِواهُمْ أَعيشُ في رِعايَتِهِمْ.

في ذلِكَ اليَوْمِ، كانُوا يَجْلِسونَ جَميعًا مَعَ أُمِّهِمْ في حُجْرةِ الجُلوسِ، عَلى حينَ جَلَسْتُ وَحْدي في المَكْتَبةِ أَقْرَأُ كِتابًا. كانَتِ القِراءةُ بِالنِّسْبةِ لي أَعْظَمَ مُتْعةٍ. وَلَمْ يَكُنْ بِالمَكْتَبةِ كُتُبُ أطفالٍ. وَلكِنَّ ذلك لَمْ يَحُلْ دونَ مُتْعَتي، فَجَلَسْتُ أَقْرَأُ كِتابَ رِحْلاتٍ. وَذَهَبْتُ مَعَ الكِتابِ إلى أَقاصي البِلادِ، مُسْتَعينةً بِما كانَ فيهِ مِنْ صُوَرٍ مُلَوَّنةٍ جَميلةٍ. إلّا أَنَّ مُتْعَتي لَمْ تَدُمْ طَويلًا، فَقَدْ فُتِحَ البابُ فَجْأَةً وَدَخَلَ جُون ابْنُ خالَتي، تَتْبَعُهُ إليزا وجُورْجِيانا.

صاحَ جُون: «ماذا تَفْعَلينَ؟ تعالَيْ إلى هُنا حالًا!»

نَهَضْتُ وذَهَبْتُ إلَيْهِ مُتَباطِئةً. كُنْتُ أخافُهُ، فَقَدْ كانَ فَتًى قَوِيًّا في الرّابِعةَ عَشْرةَ مِنْ عُمْرِهِ، عَلى حينَ كُنْتُ طِفْلَةً ضَعيفةً في العاشِرةِ مِنْ عُمْري.



وَقَدْ نَشَأَ جُون بَعْدَ وَفاةِ أبيهِ مُدَلَّلًا مِنْ أُمِّهِ الَّتي كانَتْ تَغُضُّ الطَّرْفَ عَنْ كُلِّ أَخْطائِهِ، وَتَخُصُّهُ مِنْ حُبِّها بِنَصيبٍ أَكْبَرَ مِمّا تَخُصُّ بِهِ شَقيقَتَيْهِ. وَكانَ طَويلَ القامَةِ، بَدينًا، شِرِّيرَ الطَّبْعِ، قاسِيًا، لا يُحِبُّ أَحَدًا. وَكَثيرًا ما كانَ يَضْرِبُني. وَقَدْ تَوَقَّعْتُ أَنْ يَحْدُثَ ذَلِكَ مِنْهُ يَوْمَها. وكُنْتُ عَلى حَقٍّ، فَقَدْ ضَرَبَني ضَرْبَةً كادَتْ تُوقِعُني عَلى الأَرْضِ، وَصاحَ: ماذا كُنتِ تَفْعَلينَ؟»

أَجَبْتُ: «كُنتُ أَقْرَأُ.»

قالَ: «مَنْ أَذِنَ لَكِ أَنْ تَقْرَأي كُتُبَ أُمّي؟ أَلا تَعْلَمينَ أَنَّكِ تَعيشينَ هُنا لأَنَّكِ يَتيمةٌ؟! فَقَدْ ماتَ أَبوكِ، وَماتَتْ أُمُّكِ، وَتَرَكاكِ فَقيرةً مُعْدِمةً. أَنْتِ لا تَنْتَمينَ إلى أُسْرَتِنا، وَلا يَحِقُّ لَكِ أَنْ تَقْرَأي كُتُبَنا، وَنَحْنُ جَميعًا نَكْرَهُكِ. أَتَسْمَعينَ؟ نَكْرَهُكِ!» ثُمَّ تَناوَلَ الكِتابَ وَقَذَفَهُ ناحِيَتي، فَأَصابَ رَأْسي.

لِأَوَّلِ مَرَّةٍ في حَياتي أَظْهَرْتُ غَضَبي، وَثارَتْ ثائِرَتي لِما كُنْتُ أُعانيهِ مِنَ الأَلَمِ وَمَرارَةِ الوَحْدَةِ، فَصَرَخْتُ فيهِ قائِلَةً: «أَنْتَ وَلَدٌ شِرِّيرٌ!»

بُهِتَ جُون وَقالَ: «هَلْ سَمِعْتُما ماذا قالَتْ؟ سَأَذْهَبُ في الحالِ إلى أُمّي لِأُخْبِرَها بِما حَدَثَ.» ثُمَّ أَقْبَلَ نَحْوي يُريدُ ضَرْبي، إلّا أَنّي كُنْتُ في هَذِهِ المَرَّةِ مُسْتَعِدَّةً لِضَرْبَتِهِ، وَأَسْرَعَ مِنْهُ، فَتَفادَيْتُها. وَنَشِبَ بَيْنَنا عِراكٌ، فَجَذَبْتُهُ مِنْ شَعْرِهِ وَأَنا أُكَرِّرُ قَوْلي: «أَنْتَ شِرِّيرٌ، شِرِّيرٌ! وَأَنا أَكْرَهُكَ مِنْ كُلِّ قَلْبي.»

حَضَرَتْ خالَتي وَخادِمَتُها بِسِي فَوْرَ سَماعِها صَوْتَ عِراكِنا، وَأَنْهَتِ المُشاجَرةَ، ثُمَّ نَظَرَتْ إلى بِسِي وَأَشارَتْ إِلَيَّ قائِلَةً: «خُذيها وَاحْبِسيها في الحُجْرةِ الحَمْراءِ.»

أَخَذَتْني بِسِي وَقالَتْ لي وَنَحْنُ في الطَّريقِ إلى الحُجْرةِ الحَمْراءِ: «ما أَبْشَعَ ما فَعَلْتِهِ بِجُون! هَلْ نَسيتِ أَنَّ السَّيِّدةَ ريد هِيَ أُمُّهُ، وَهِيَ الَّتي تَعْطِفُ عَلَيْكِ وَتَرْعاكِ في بَيْتِها؟ تَذَكَّري ذَلِكَ دائِمًا يا جين! أَنا لا أَدْري ماذا دَهاكِ!»

الفَصْلُ الثّاني

«خُذيها إلى الحُجْرةِ الحَمْراءِ.» شَعَرْتُ حينَ سَمِعْتُ تِلْكَ العِبارةَ بِذُعْرٍ شَديدٍ. كانَتِ الحُجْرةُ الحَمْراءُ غُرْفَةَ نَوْمِ عَمّي الَّذي تُوُفِّيَ مُنْذُ تِسْعِ سَنَواتٍ. وَكانَتْ غَيْرَ مُسْتَعْمَلةٍ، لا يَدْخُلُها أَحَدٌ إلّا نادِرًا. وَأَدْخَلَتْني فيها بِسي وَأَوْصَدَتِ البابَ بِالمِفْتاحِ.

كُنْتُ أَرْتَعِدُ خَوْفًا وَغَضَبًا. وَتَطَلَّعْتُ حَوْلي، فَرَأَيْتُ غُرْفَةً مُتَّسِعةً بارِدةً، بَدا لي كُلُّ ما فيها كَبيرًا وَمُخيفًا. كانَ السَّريرُ كَبيرًا، وَكَذَلِكَ المَقاعِدُ. وَجَلَسْتُ في وَسَطِها مُنْكَمِشةً حَيْثُ تَرَكَتْني بِسي، أَكادُ أَموتُ مِنَ الخَوْفِ وَالهَلَعِ. وَتَذَكَّرْتُ ما سَمِعْتُهُ مِنْ بِسي عَنِ الأَشْباحِ، وَعَنْ أَرْواحِ المَوْتى الَّذينَ يَعودونَ مِنْ قُبورِهِمْ لِيَزورُوا بُيوتَهُمْ، خُصوصًا إذا كانوا قَدْ أَمْضَوْا أَيّامًا تَعِسةً في حَياتِهِمْ. وَزادَ خَوْفي وَشُعوري بِالوَحْدةِ، فَبَدَأْتُ أَبْكي وَأَنْدُبُ سُوءَ حَظّي. كانَ الكُلُّ يَكْرَهُني بِالرَّغْمِ مِمّا أَبْذُلُهُ مِنَ الجَهْدِ لِإرْضائِهِمْ؛ وَكانَ زَوْجُ خالَتي المُتَوَفّى هُوَ الوَحيدَ الَّذي عَطَفَ عَلَيَّ.

كانَتْ مَخاوِفي تَزْدادُ كُلَّما اشْتَدَّ ظَلامُ الحُجْرةِ، وَبَقيتُ في مَكاني، لا أَجْرُؤُ عَلى الحَرَكةِ. وَفَجْأةً رَأَيْتُ نورًا عَلى الجِدارِ أَمامي، وَلَمْ يَكُنْ ضَوْءَ القَمَرِ، فالوَقْتُ كانَ مُبَكِّرًا، إذًا مِنْ أَيْنَ أَتى الضَّوْءُ؟! وَأَخَذَ قَلْبي يَخْفُقُ اضْطِرابًا، وَانْدَفَعْتُ ناحِيةَ البابِ أُحاوِلُ فَتْحَهُ، فَوَجَدْتُهُ مُوصَدًا، فَأَخَذْتُ أَصْرُخُ.



سَمِعَتْني بسِي، فَسَأَلَتْ: «ما الخَبَرُ؟ هَلْ أَنْتِ مَريضةٌ؟» وَفَتَحَتِ البابَ قَليلًا، وَأَطَلَّتْ عَلَيَّ، فَقُلْتُ: «أَرْجوكِ، أَرْجوكِ يا بسِي دَعِيني أَخْرُجُ مِنْ هُنا وَإِلّا سَأَموتُ.»

سَأَلَتْ: «ما بِكِ؟»

أَجَبْتُ: «رَأَيْتُ نورًا عَلى الجِدارِ وَرَأَيْتُ شَبَحًا. أَرْجوكِ يا بسِي أَرْجوكِ!»

سَمِعْتُ صَوْتَ السَّيِّدَةِ رِيد تَسْأَلُ عَنْ سَبَبِ الضَّجَّةِ فَأَجابَتْها بسِي قائِلَةً: «سَمِعْتُها تَصْرُخُ يا سَيِّدَتي، فَظَنَنْتُها مَريضةً.»

قالَتِ السَّيِّدةُ رِيد: «اتْرُكيها ساعةً أُخْرى كَيْ تَرْتَدِعَ عَنْ شَرِّها. لَمْ أَرَ في حَياتي طِفْلَةً شِرِّيرةً صَعْبَةَ المِراسِ كَهَذِهِ.»

قُلْتُ: «سامِحيني يا خالَتي. أَتَوَسَّلُ إِلَيْكِ! سَأَموتُ في تِلْكَ الغُرْفةِ.» لكِنَّها دَفَعَتْني عَنْها إِلى داخِلِ الغُرْفةِ، وَلَمْ أَعِ بَعْدَ ذَلِكَ شَيْئًا.

الْفَصْلُ الثّالِثُ

أَفَقْتُ فَوَجَدْتُ نَفْسي راقِدَةً في فِراشي. وَشَعَرْتُ كَمَنْ يُفيقُ مِنْ كابوسٍ رَهيبٍ، ثُمَّ سَمِعْتُ أصواتًا آتِيَةً مِنْ بَعيدٍ.

وَرَأَيْتُ بِسِي في الحُجْرةِ وَمَعَها رَجُلٌ عَرَفْتُهُ، إنَّهُ الدُّكْتور لُويد الَّذي كانَ يَرْعى المَرْضى مِنَ الخَدَمِ.

كانَ رَجُلًا عطوفًا، وَجَلَسَ بِجانِبِ الفِراشِ، وَأَخَذَ يُوَجِّهُ إلَيَّ أَسْئِلَةً، وَكُنْتُ أُجيبُ عَنْها بِيُسْرٍ وَسُهولَةٍ. وَأَخيرًا نَهَضَ قائِلًا: «يَجِبُ أَنْ أَذْهَبَ الآنَ وَسَأَعودُ غَدًا إنْ شاءَ الله. أَنْتِ بِخَيْرٍ يا جِين، وَسَتَتعافينَ سَريعًا.» ثُمَّ الْتَفَتَ إلى بِسِي قائِلًا: «يَجِبُ أَنْ تَلْزَمَ هَذِهِ الطِّفْلَةُ الرّاحةَ التّامَّةَ وَتَنامَ الآنَ، أَسْتَوْدِعُكُما الله.»

شَعَرْتُ بِالِارْتياحِ بَعْضَ الوَقْتِ، وَلَكِنْ سَرْعانَ ما عاوَدَني الشُّعورُ بِالأَسى وَالمَرارةِ، وَسَأَلْتُ بِسِي عَنْ سَبَبِ مُلازَمَتي الفِراشَ فَأَجابَتْ: «لَقَدْ مَرِضْتِ مِنْ كَثْرَةِ البُكاءِ وَالصِّياحِ أَثْناءَ وُجودِكِ في الغُرْفَةِ الحَمْراءِ. وَإنْ شاءَ الله سَتَسْتَرِدِّينَ صِحَّتَكِ قَريبًا، فَاخْلُدي إلى السُّكونِ وَحاوِلي أَنْ تَنامي.»

نِمْتُ نَوْمًا مُتَقَطِّعًا طَوالَ اللَّيْلِ، وَكُنْتُ أَسْتَعْرِضُ في مُخَيِّلَتي كُلَّ ما حَدَثَ في تِلْكَ الغُرْفَةِ اللَّعينَةِ: اقْتَرَبَ مِنِّي شَبَحٌ أَبْيَضُ، ثُمَّ اخْتَفَى بِسُرْعَةٍ، وَجاءَ خَلْفَهُ كَلْبٌ أَسْوَدُ ضَخْمٌ. وَتَمَلَّكَني الرُّعْبُ وَالخَوْفُ مِنْ

جَديدٍ، عِنْدَما تَذَكَّرْتُ هَذا. قُلْتُ لِنَفْسي: «لَنْ أَصْفَحَ أَبَدًا عَنْ خالَتي وَلَنْ أَنْسى أَبَدًا سُوءَ مُعامَلَتِها وَقَسْوَتَها، وَما زَرَعَتْهُ في نَفْسي مِنْ خَوْفٍ وَمَرارةٍ.»

حَضَرَتْ بِسي في اليَوْمِ التّالي، وَساعَدَتْني عَلى ارْتِداءِ مَلابِسي، وَكانَتْ لَطيفةً جِدًّا في مُعامَلَتِها، فَقَدْ أَحْضَرَتْ لي كُتُبيَ المُحَبَّبَةَ لأَقْرَأَها، وَأَعَدَّتْ لي أَشْهى الطَّعامِ وَالشَّرابِ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ لَمْ يَمْحُ ما كانَ في نَفْسِي مِنْ أَلَمٍ وَحُزْنٍ فَبَكَيْتُ بِشِدَّةٍ. حَضَرَ الطَّبيبُ كَما وَعَدَ، وَجَلَسَ يَتَحَدَّثُ مَعي طَويلًا بَعْدَ أَنْ أَمَرَ بِسي بِالِانْصِرافِ لِحالِها. وَعِنْدَما أَخْبَرْتُهُ عَنِ الشَّبَحِ الَّذي رَأَيْتُهُ في الغُرْفَةِ الحَمْراءِ ضَحِكَ، فَأَكَّدْتُ لَهُ أَنَّهُ كانَ شَبَحَ السَّيِّدِ رِيد الَّذي ماتَ في تِلْكَ الغُرْفَةِ، وَأَنَّ الجَميع، بِمَنْ فِيهِمُ السَّيِّدَةُ رِيد نَفْسُها، يَخافونَ دُخولَ تِلْكَ الغُرْفَةِ. وَأَخْبَرْتُهُ عَنْ عُزْلَتي وَسْطَ أَسْرَةِ خالَتي في غِيتْسهِيد هُول، وَكَيْفَ أَنَّ الجَميعَ يَكْرَهونَني وَيَنْبِذونَني لِأَنّي يَتيمةٌ لا أَمْلِكُ شَيْئًا.

سَأَلَني عَمّا إذا كانَ لي أَقارِبُ آخَرونَ يُمْكِنُ أَنْ أَلْجَأَ إِلَيْهِمْ، فَقُلْتُ: «حَدَّثَتْني مَرَّةً السَّيِّدةُ رِيد عَنْ عائِلَةِ أَبي، أُسْرةِ إِير. وَلَكِنَّها قالَتْ إِنَّها لا تَعْلَمُ عَنْهُمْ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّهُمْ فُقَراءُ مَساكينُ، لا يُمْكِنُهُمْ إيواءُ طِفْلَةٍ يَتيمةٍ مِثْلي وَرِعايَتُها.»

سَأَلَني: «ما رَأْيُكِ في الذَّهابِ إِلى المَدْرَسةِ؟»

لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ شَيْئًا عَنِ المَدارِسِ سِوى أَنَّ جُون رِيد، وَهُوَ الوَحيدُ الَّذي كانَ يَذْهَبُ لِلْمَدْرَسةِ، كانَ يَكْرَهُ المَدْرَسةَ وَيَكْرَهُ الذَّهابَ إِلَيْها.



وَلَكِنْ إذا كانَ ذَهابي لِلْمَدْرسةِ يَعْني بُعْدي عَنْ غِيتْسهِيد هُول، فَذَلِكَ أَفْضَلُ لي، وَأَنا أُوافِقُ عَلَيْهِ وَأَتَمَنّاهُ مِنْ كُلِّ قَلْبي.

قالَ الدُّكْتور لُويد: «حَسَنًا سَأُكَلِّمُ خالَتَكِ بِخُصوصِ هذا المَوْضوعِ. وَالآنَ أَسْتَوْدِعُكِ الله يا جِين.» وَانْصَرَفَ.

عَلِمْتُ مِنْ بسي أَنَّ خالَتي وافَقَتْ عَلى فِكْرَةِ إِرْسالي لِلْمَدْرَسةِ. ثُمَّ حَدَّثَتْني عَنْ أَبي، وَقالَتْ إِنَّهُ كان قَسًّا فَقيرًا في إِحْدى الكَنائِسِ الصَّغيرةِ، على حينَ كانَتْ أُمّي تَنْتَمي إلى عائِلةٍ مِنَ العائِلاتِ ذَواتِ الشَّأْنِ. وَأَحَبَّ أَبي أُمّيَ وأَحَبَّتْهُ، وَلَكِنَّ عائِلةَ أُمّي اعْتَرَضَتْ عَلى زَواجِها. وَبِالرَّغْمِ مِنْ ذلِكَ فَقَدْ تَزَوَّجا مِمَّا أَثارَ سُخْطَ عائِلَتِها فَقَطَعوا كُلَّ صِلَتِهِمْ بِها. وَتُوُفِّيَ أَبي بَعْدَ سَنَةٍ واحِدةٍ مِنَ الزَّواجِ، وَلَحِقَتْ بِهِ أُمّي بَعْدَ وَقْتٍ قَصيرٍ مِنْ وِلادَتي. وقالَتْ بسي تُنْهي حَديثَها: «مِسْكينةٌ أَنْتِ يا جِين! إِنَّها قِصَّةٌ مُحْزِنةٌ، وَلكِنْ يَجِبُ عَلَيْكِ أَنْ تكوني فتاةً طَيِّبةً شاكِرةً لِأُسرةِ رِيد الَّتي احْتَضَنَتْكِ وَرَعَتْكِ.»

الْفَصْلُ الرّابع

مَضَتْ بِضْعةُ أَشْهُرٍ دونَ أَنْ يَرِدَ ذِكْرُ المَدْرَسةِ عَلى لِسانٍ، وَظَنَنْتُ أَنَّ المَوْضوعَ قَدْ أُهْمِلَ. وَكانَتْ خالَتي طَوالَ تِلْكَ المُدَّةِ لا تُكَلِّمُني قَطُّ، وَكانَ أَوْلادُها لا يُشْرِكُونَني مَعَهُمْ في اللَّعِبِ وَالمَرَحِ. وَصِرْتُ مُنْعَزِلَةً: أَجْلِسُ وَحْدي، وَآكُلُ وَحْدي، وأَنامُ وَحْدي. وَحاوَلَ جون مَرَّةً مُعاكَسَتي فَانْفَجَرْتُ فيهِ غاضِبةً، وَفَرَّ هارِبًا.

دَخَلَتْ بسِي حُجْرَتي صَباحَ يَوْمٍ لِتُخْبِرَني بِأَنَّ السَّيِّدَةَ رِيد تَوَدُّ مُقابَلَتي في حُجْرةِ الجُلوسِ. وَذَهَبْتُ وَأَنا خائِفةٌ مِمّا سَيَتَرَتَّبُ عَلى تِلْكَ المُقابَلةِ. وَعِنْدَما دَخَلْتُ الحُجْرَةَ قالَتْ لِرَجُلٍ كانَ مَوْجودًا مَعَها: «هَذِهِ هِيَ الطِّفْلَةُ الَّتي كَتَبْتُ لَكَ عَنْها.»

كانَ الرَّجُلُ طَويلًا، عَريضَ الكَتِفَيْنِ، يَرْتَدي حُلَّةً سَوْداءَ، وَتَبْدو عَلى وَجْهِهِ سِماتُ الجِدِّ وَالصَّرامةِ. نَظَرَ إِلَيَّ بُرْهةً ثُمَّ سَأَلَ خالَتي: «كَمْ عُمْرُها؟»

أَجابَتْ: «إِنَّها في العاشِرَةِ مِنْ عُمْرِها يا سَيِّدُ بُرو كِلْهِرِسْت.»

قالَ مُتَعَجِّبًا: إِنَّها تَبْدو أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ.» ثُمَّ سَأَلَني: «ما اسْمُكِ؟»

أَجَبْتُ: «جِين إير، يا سَيِّدي.»

سَأَلَني: «هَلْ أَنْتِ فَتاةٌ مُطيعةٌ طَيِّبةٌ؟»



أَسْرَعَتِ السَّيِّدَةُ رِيد بِالْإِجابَةِ قائِلَةً: «لَقَدْ سَبَقَ وَكَتَبْتُ لَكَ عَنْ سُوءِ خُلُقِها يا سَيِّدُ بُرو كِلْهِرسْت، وَلا أَرى داعِيًا لِأَنْ نُعيدَ الحَديثَ عَنْ ذٰلِكَ.»

قالَ: «تَعالَيْ إِلى هُنا يا جِين.»

وَقَفْتُ أَمامَهُ مُدَّةَ عَشْرِ دَقائِقَ أَلْقى عَلَيَّ فيها دَرْسًا عَنِ الأَخْلاقِ وَحُسْنِ السُّلوكِ، وَكَيْفَ أَنَّ الأَطْفالَ سَيِّئي الخُلُقِ سَيَذْهَبونَ إِلى جَهَنَّمَ بَعْدَ مَماتِهِمْ. وَفي نِهايَةِ حَديثِهِ سَأَلَني: «هَلْ تُريدينَ أَنْ تَذْهَبي إِلى جَهَنَّمَ بَعْدَ وَفاتِكِ؟»

اسْتَحْوَذَ عَلَيَّ الرُّعْبُ، وَعاوَدَتْني مَخاوِفُ الحُجْرَةِ الحَمْراءِ، فَعَجَزْتُ عَنِ الرَّدِّ. وَقالَتْ خالَتي: «جين إير طِفْلَةٌ مُزْعِجَةٌ، وَأَوَدُّ أَنْ أُرْسِلَها إِلى



مَدْرَسَتِكَ في لُوود حَتَّى تَتَهَذَّب، وَتُصْبِحَ ذاتَ شَخْصِيَّةٍ أَفْضَلَ عِنْدَما تَكْبُرُ.»

شَعَرْتُ بِكُرْهي لَها يَزْدادُ عِنْدَ سَماعي كَلِماتِها هَذِهِ. فَكَيْفَ تَتَحَدَّثُ عَنّي بِهَذِهِ اللَّهْجَةِ البَغيضَةِ أَمامَ شَخْصٍ غَريبٍ؟ لَقَدِ انْطَبَعَتْ عَنّي في رَأْسِ السَّيِّدِ بْرو كِلْهِرسْت فِكْرَةٌ سَيِّئَةٌ لَنْ تَمْحُوَها الأَيّامُ.

قالَ السَّيِّدُ بْرو كِلْهِرسْت: «اطْمَئِنّي يا سَيِّدَةُ رِيد، سَأُخْبِرُ الآنِسَةَ تِمْبِل ناظِرَةَ المَدْرَسَةِ بِما حَدَّثْتِني عَنْهُ.»

وَهكَذا سَبَقَتْني إِلى المَدْرَسَةِ انْطِباعاتُ السَّيِّدَةِ رِيد عَنْ سُوءِ سُلوكي، فَقَرَّرْتُ آنَذاكَ أَلّا أَدْعُوَها بَعْدَ ذَلِكَ بِخالَتي، وَقَرَّرْتُ أَيْضًا أَلّا آتِيَ أَبَدًا لِزِيارَتِها.

وَبَعْدَ المُقابَلةِ خَرَجْتُ إلى الحَديقةِ وَمَكَثْتُ بِها وَحْدي عِدَّةَ ساعاتٍ حَتَّى حَضَرَتْ بسِي وَأَدْخَلَتْني خَوْفًا عَلَيَّ مِنَ البَرْدِ. وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ في حَياتي شَعَرْتُ بِالمَيْلِ نَحْوَها فَطَوَّقْتُها بِذِراعَيَّ قائِلةً: «أَرْجوكِ يا بسِي لا تَغْضَبي مِنِّي.»

قالَتْ بِسُرورٍ: «حَقًّا أَنْتِ غَريبةُ الأَطْوارِ. لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّكِ سَتَذْهَبينَ قَريبًا إلى المَدْرَسةِ، فَهَلْ يُحْزِنُكِ أَنْ تَتْرُكي بسِي المِسْكينةَ وَراءَكِ.»

قُلْتُ: «بسِي لا يُهِمُّها مِنْ أَمْري شَيْءٌ، وَهِيَ دائِمةُ الغَضَبِ مِنِّي.»

فَقالَتْ: «أَصْغي لي جَيِّدًا يا جين. عِنْدَما تَذْهَبينَ لِلْمَدْرَسةِ، كُوني شُجاعةً، وَلا تَنْطَوي عَلى نَفْسِكِ هَكَذا. فَإِنَّ النّاسَ يُقَدِّرونَ المَرْءَ بِما يُظْهِرُ لَهُمْ مِنْ قُوَّةِ شَخْصيَّتِهِ وَشَجاعَتِهِ، وَأَعِدُكِ بِأَنِّي مِنَ الآنَ حَتَّى ذَهابِكِ لِلْمَدْرَسةِ لَنْ أَغْضَبَ مِنْكِ أَوْ أُغْضِبَكِ.»

قُلْتُ: «لَسْتُ أَخافُكِ يا بسِي، وَلَكِنِّي أَرْتَعِدُ هَلَعًا كُلَّما فَكَّرْتُ في كُلِّ الأَشْخاصِ الجُدُدِ الَّذينَ سَأَلْتَقي بِهِمْ في مَدْرَسةِ لُووُد.»

قالَتْ: «لا تَخافي يا جَين، لَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أُبَيِّنَ لَكِ أَنَّ خَوْفَكِ مِنَ النّاسِ يُبْعِدُكِ عَنْهُمْ، وَقَدْ يَدْفَعُهُمْ لِكُرْهِكِ. وَالآنَ هَيّا نَدْخُلْ. لَقَدْ صَنَعْتُ لَكِ فَطيرةً خاصَّةً لِلشّاي.»

احْتَضَنَتْني وَدَخَلْنا مَعًا. وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ شَعَرْتُ بِالسَّعادةِ في غِيتْسهِيد هُول وَأَنا أُوشِكُ أَنْ أَتْرُكَها لِلْأَبَدِ.

الْفَصْلُ الخامِسُ

تَرَكْتُ غِيتْسهِيد في ساعةٍ مُبَكِّرةٍ مِنْ صَباحِ أَحَدِ الأَيَّامِ، وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ غَيْرُ بِسِي لِتَوْديعي. سَمِعْنا صَوْتَ الجيادِ وَهيَ مُقْبِلَةٌ عَنْ بُعْدٍ، وَقَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ السّاعةُ السّادِسةَ وَصَلَتِ المَرْكَبةُ وَبَدَأَتْ رِحْلَتي.

اسْتَغْرَقَتِ الرِّحْلةُ اليَوْمَ بأَكمَلِهِ، مِنَ الصَّباحِ الباكِرِ حَتَّى ساعةٍ مُتَأَخِّرةٍ مِنَ اللَّيْلِ. كانَ النُّعاسُ قَدْ غَلَبَني فَنِمْتُ في المَرْكَبةِ، وَاسْتَيْقَظْتُ على صَوْتِ امْرَأَةٍ تَسْأَلُ: «هَلْ مَعَكُمْ فَتاةٌ صَغيرةٌ تُدعى جِين إير؟»

نَهَضْتُ في الحالِ قائِلَةً: «نَعَمْ، أَنا.» فَأُنْزِلْتُ مِنَ المَركَبةِ.

كانَ الظَّلامُ حالِكًا، وَالمَطَرُ يَتَساقَطُ، وَالرِّياحُ تَهُبُّ بِشِدَّةٍ. وَلاحَ أَمامي مَبْنًى مُنْخَفِضٌ طَويلٌ. وَعِنْدَما طَرَقْنا بابَهُ فَتَحَتْهُ خادِمةٌ وَأَدْخَلَتْنا حُجْرَةَ الجُلوسِ. وَكانَتِ الحُجْرةُ دافِئَةً وَمُريحةً، رَغْمَ أَنَّها لَمْ تَكُنْ في عَظَمةِ وَأُبَّهةِ حُجْرةِ الجُلوسِ في غِيتْسهِيد هُول.

دَخَلَتْ عَلَيْنا سَيِّدةٌ طَويلةٌ ذاتُ شَعْرٍ أَسْوَدَ، وَوَجْهٍ حَنونٍ، وَعِنْدَما رَأَتْني قالَتْ: «أَهْلًا يا جِين! إِنَّكِ صَغيرةٌ يا فَتاتي عَلى السَّفَرِ بِمُفْرَدِك، هَلْ أَنْتِ مُتْعَبةٌ؟»

أَجَبْتُ: «قَليلًا يا سَيِّدَتي.»

قالَتْ: «بِالتَّأْكيدِ جائِعةٌ أَيْضًا. قَدِّمي لَها بَعْضَ الطَّعامِ يا آنِسةُ مِيلَر قَبْلَ أَنْ تَذْهَبَ إِلى الفِراشِ.» وَسَأَلَتْني: «هَذِهِ أَوَّلُ مَرَّةٍ تَتْرُكينَ فيها

والِدَيْكِ يا بُنَيَّتي، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

أَخْبَرْتُها بِأَنّي يَتيمةُ الأَبَوَيْنِ مُنْذُ طُفولَتي، وَلا أَتَذَكَّرُ شَيْئًا عَنْهُما، فَسَأَلَتْني عَنْ عُمْري، وَأَخْبَرْتُها فقالَتْ: «أَرْجو أَنْ تَنْعَمي بِوُجودِكِ وَسْطَنا يا جِين، وَأَنْ تَكوني فَتاةً طَيِّبَةً مُطيعةً.»

أَخَذَتْني الآنِسةُ مِيلَر إلى حُجْرَةٍ فَسيحةٍ مُزْدَحِمةٍ بِفَتَياتٍ مِنْ مُخْتَلِفِ الأَعْمارِ. وَكُنَّ نَحْوَ ثَمانينَ فَتاةً يَرْتَدينَ كُلُّهُنَّ زِيًّا واحِدًا مُكَوَّنًا مِنْ جِلْبابٍ بُنِّيِّ اللَّوْنِ قَبيحِ الشَّكْلِ، وَأَحْذيةٍ ضَخْمةٍ ثَقيلةٍ. وَكُنَّ عَلى ما بَدا يَسْتَذْكِرْنَ دُروسَهُنَّ لِلْيَوْمِ التّالي.

فَجْأَةً عَلا صَوْتٌ يَطْلُبُ طَعامَ العَشاءِ، وَلَمّا أُحْضِرَ العَشاءُ وَجَدْتُهُ مُكَوَّنًا مِنْ خُبْزٍ وَماءٍ لا غَيْرَ، وَحَتَّى ذَلِكَ كانَ قَليلًا. وَسَرْعانَ ما انْتَهَتِ



الوَجْبةُ وَذَهَبْنا لِلْفِراشِ.

في الصَّباحِ، أَيْقَظَني رَنينُ الجَرَسِ. وَبَدَأْتُ حَياتي في مَدْرَسةِ لُووُد. لَمْ تَكُنِ الشَّمْسُ قَدْ أَشْرَقَتْ بَعْدُ حينَ دَخَلْنا حُجْرةَ الدِّراسةِ، ثُمَّ حَضَرَتْ ثَلاثُ مُدَرِّساتٍ أُخْرَياتٍ، وَكانَتْ هُناكَ مُدَرِّسةٌ لِكُلِّ فَصْلٍ، وَقَدْ أُلْحِقْتُ بِأَصْغَرِ الفُصولِ. وَأَمْضَينا ساعةً نَحْفَظُ صَلَواتِ ذَلِكَ اليَوْمِ، وَكِدْتُ أَموتُ جُوعًا إذْ لَمْ أَكُنْ قَدْ تَناوَلْتُ غَيْرَ القَليلِ مِنَ الطَّعامِ في اليَوْمِ السَّابِقِ.

أَخيرًا حانَ وَقْتُ الإفْطارِ، وَلكِنَّ رائِحةَ الطَّعامِ المُقَدَّمِ لَنا كانَتْ كَريهةً فَعافَهُ الجَميعُ حَتَّى أَنا مَعَ شِدَّةِ جُوعي، وَلَمْ نَتَناوَلْ إلَّا القَليلَ.

بَعْدَ الإفْطارِ، كانَتْ لَدَيْنا فَتْرةُ راحةٍ مُدَّتُها خَمْسَ عَشْرةَ دَقيقةً أَمْضَيْناها في الحَديثِ عَنْ رَداءَةِ الطَّعامِ. وَفي السّاعةِ التّاسِعةِ دَقَّ جَرَسٌ



آخَرُ، فَعُدْنا إلى فُصولِنا وَدُروسِنا حَيْثُ بَقِينا حَتَّى الظَّهيرةِ. وَخَرَجْنا بَعْدَ ذَلِكَ إلى الحَديقةِ لِمُدَّةِ نِصْفِ ساعةٍ، وَكانَ البَرْدُ شَديدًا، وَلَمْ نَكُنْ نَرْتَدي سِوى ثِيابٍ خَفيفةٍ.

في ذَلِكَ اليَوْمِ، بَدَتِ الحَديقةُ جَرْداءَ بارِدةً، فَقَدْ كُنّا في مُنْتَصَفِ فَصْلِ الشِّتاءِ. وَكانَ المَطَرُ يَتَساقَطُ رَذاذًا، فَتَجَمَّعَتْ بَعْضُ الفَتَياتِ في رُكْنٍ مِنْ أَرْكانِ الحَديقةِ يُحاوِلْنَ تَدْفِئَةَ أَنْفُسِهِنَّ. وَكانَتِ الكَثيراتُ مِنْهُنَّ يَسْعُلْنَ، وَسَرْعانَ ما تَعَوَّدْتُ صَوْتَ السُّعالِ في مَدْرَسةِ لُووُد، فَأَكْثَرُ الفَتَياتِ كُنَّ مَريضاتٍ يُعانِينَ مِنْ ضَعْفِ صُدورِهِنَّ.

لَمَحْتُ في الحَديقةِ فَتاةً تَجْلِسُ بِمُفْرَدِها تُطالِعُ كِتابًا، شَعَرْتُ بِشَيْءٍ يَجْذِبُني نَحْوَها، وَلَمْ أَشْعُرْ بِالْخَوْفِ مِنْها كَعادَتي، بَلْ جَرُؤْتُ عَلى أَنْ أُوَجِّهَ إِلَيْها بَعْضَ الاسْتِفْساراتِ عَنِ المَدْرَسةِ وَنُظُمِها. كانَ حَديثُها لَطيفًا، وَعَلِمْتُ مِنْها أَنَّ مَدْرَسةَ لُووُد مَدْرَسةُ أَيْتامِ الأُسَرِ الفَقيرةِ، وَأَنَّ الآنِسةَ تِمْبِل هِيَ ناظِرةُ المَدْرَسةِ وَلَيْسَتْ صاحِبَتَها، وَأَنَّ صاحِبَ المَدْرَسةِ هُوَ السَّيِّدُ بْرو كِلْهِرسْت.

قُلْتُ لَها: «الآنِسةُ تِمْبِل شَخْصيَّةٌ لَطيفةٌ طَيِّبةٌ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

أَجابَتْ: «نَعَمْ، هِيَ طَيِّبةٌ وَكَذلِكَ باقي المُدَرِّساتِ، وَلَكِنَّها تَفوقُ الجَميعَ طيبةً وَذَكاءً؛ وَكَمْ تَمَنَّيْتُ لَوْ كانَتْ هِيَ صاحِبةَ المَدْرَسةِ بَدَلًا مِنَ السَّيِّدِ بْرو كِلْهِرسْت.»

كانَتِ الفَتاةُ تُدْعى هِيلين بِيرنْز، وَهِيَ يَتيمةٌ، وَأَمْضَتْ سَنَتَيْنِ في

المَدْرَسةِ. وَسَأَلْتُها عَمّا إذا كانَتْ سَعيدةً في حَياتِها هُنا فَقالَتْ: «كَفى أَسْئِلةً الآنَ، أَرْجوكِ أَنْ تَتْرُكيني لِأَنِّي أَوَدُّ أَنْ أَقْرَأَ.»

تَرَكْتُها، وَكُنْتُ سَعيدةً لِرِقَّتِها في الحَديثِ مَعي، وَلَكِنِّي كُنْتُ قَلِقةً عَلَيْها، فَقَدْ سَمِعْتُها تَسْعُلُ كَثيرًا أَثْناءَ حَديثِنا وَكانَتْ ضَعيفةَ البِنْيةِ.

دَقَّ الجَرَسُ مُعْلِنًا عَنْ وَقْتِ الغَداءِ، وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الوَجْبةُ أَفْضَلَ مِنَ الوَجْبةِ السّابِقةِ، فَتَناوَلْنا مِنْها القَليلَ ثُمَّ عاوَدْنا الدِّراسةَ حَتَّى صارتِ السّاعةُ الخامِسةَ. وَتَناوَلْنا وَجْبةً أُخرى صَغيرةً مُكَوَّنةً مِنَ القَهْوةِ وَالخُبْزِ الأَسْمَرِ، ثُمَّ لَعِبْنا لِمُدَّةِ نِصْفِ ساعةٍ عُدْنا بَعْدَها لِلدِّراسةِ حَتَّى حانَ وَقْتُ العَشاءِ. وَاخْتَتَمْنا اليَوْمَ بِتَناوُلِ قِطْعةِ خُبْزٍ يابِسٍ وَكُوبٍ مِنَ الماءِ، ثُمَّ آوَيْنا إلى الفِراشِ بَعْدَ أَنْ صَلَّيْنا.

الفَصْلُ السّادِسُ

تَعاقَبَتِ الأَيّامُ عَلى نَفْسِ الوَتيرةِ وَالنِّظامِ في لُووُد. وَانْقَضَتْ أَرْبَعةُ أَشْهُرٍ بِبُطْءٍ مُمِلٍّ، وَلكِنِّي لَمْ أَكُنْ تَعيسةً عَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الحَياةَ في المَدْرَسةِ كانَتْ أَقْسَى مِنَ الحَياةِ في غِيتسهِيد هُول. وَكُنْتُ أُفَضِّلُ هذِهِ الحَياةَ بِرَغْمِ ما لاقَيْتُهُ مِنْ صُعوباتٍ في بَدْءِ دِراسَتي حَيْثُ كانَ كُلُّ شَيْءٍ جَديدًا عَلَيَّ. وَوَجَدْتُ مُتْعةً في تَحْصيلِ المَعْرِفةِ وَمُتابَعةِ الدُّروسِ، وَكانَتْ مُشْكِلَتي - بَلْ مُشْكِلةُ الجَميع - هِيَ الشُّعورَ الدّائِمَ بِالْجُوعِ.

قَوِيَتْ أَواصِرُ الصَّداقةِ بَيْني وَبَيْنَ هِيلِين بيرنْز، وَكانَتْ تُشَجِّعُني دائِمًا وَتَحُثُّني عَلى مُواجَهةِ الصِّعابِ؛ وَلكِنْ لِلأَسَفِ اشْتَدَّتْ عَلَيْها وَطْأَةُ المَرَضِ، وَساءَتْ صِحَّتُها، وَكادَ سُعالُها أَنْ يَكونَ مُتَواصِلًا. وَلَكِنَّها بَقِيَتْ صَبورةً بَشوشةً حَنونةً.

كانَ قَدْ مَضى عَلى وُجُودي في المَدْرَسةِ نَحْوَ ثَلاثةِ أَسابيعَ، وَوَقَعَتْ حادِثةٌ أَظْهَرَتْ رِقَّةَ قَلْبِ هِيلِين. فَقَدْ دَخَلَ عَلَيْنا في الفَصْلِ السَّيِّدُ بُرو كِلْهرسْت بِصُحْبةِ الآنِسةِ تِمْبل. كُنْتُ قَدْ بَدَأْتُ أُثْبِتُ وُجودي في لُووُد، وَأَحوزُ عَطْفَ الجَميعِ وَرِضاهُمْ عَنِّي، إلى أَنْ حَضَرَ السَّيِّدُ بُرو كِلْهرسْت.

خِفْتُ أَنْ يُذيعَ عَنِّي ما قالَتْهُ السَّيِّدةُ رِيد، فَجَلَسْتُ ساكِنةً لا أَتَحَرَّكُ حَتَّى لا أَلْفِتَ نَظَرَهُ إِلَيَّ. وَاسْتَمَرَّ في حَديثِهِ مَعَ الآنِسةِ تِمْبل، وَكانَ يُخالِفُ رَأْيَها في إِدْخالِ بَعْضِ التَّحْسيناتِ عَلى مَلْبَسِنا وَمَأْكَلِنا وَمَشْرَبِنا،

كَما انْتَقَدَ عِدَّةَ أَشْياءَ أُخْرى مِنْها بَعْضُ تَسْرِيحاتِ الشَّعْرِ. وَلَمْ تُدافِعِ الآنِسةُ تِمْبِل عَنْ رَأْيِها، بَلْ تَقَبَّلَتْ ما أَبْدَى مِنْ رَأْيٍ وَانْتِقادٍ صامِتَةً صاغِرَةً. وَكُنْتُ أَتَمَيَّزُ غَيْظًا، وكانَتْ يَدايَ تَرْتَجِفانِ رُعْبًا، فَسَقَطَ كِتابي عَلى الأَرْضِ وَأَحْدَثَ صَوْتًا، وَحَدَثَ ما كُنْتُ أَخْشاهُ.

صَوَّبَ إِلَيَّ السَّيِّدُ بُرو كِلْهِرِسْت نَظْرَةً ثاقِبَةً قاسِيَةً وَقالَ: «تَبًّا لَكِ! أَنْتِ الفَتاةُ الجَديدةُ جِين إير. تَعالَيْ إلى هُنا. لَدَيَّ ما أَوَدُّ أَنْ أَقولَهُ عَنْكِ.»

تَمَلَّكَني الرُّعْبُ، وَشُلَّتْ حَرَكَتي، فَدَفَعَتْني الفَتاتانِ اللَّتانِ كانتا جالِسَتَيْنِ عَلى جانِبَيَّ، وَوَقَفْتُ أَمامَ السَّيِّدِ بُرو كِلْهِرِسْت، وَسَمِعْتُ صَوْتَ الآنِسةِ تِمْبِل تَقولُ بِرَزانةٍ وَهُدوءٍ: «لا تَخافي يا جِين؛ أَنا واثِقةٌ مِنْ أَنَّ سُقوطَ الكِتابِ لَمْ يَكُنْ مُتَعَمَّدًا.» ما كانَ أَلْطَفَها!

أَشارَ السَّيِّدُ بُرو كِلْهِرِسْت إلى مَقْعَدٍ عالٍ وَقالَ: «اجْلِسي هُناكَ.» ثُمَّ أَمْضى عَشْرَ دَقائِقَ يُحَدِّثُ الجَميعَ عَمّا عَرَفَهُ عَنّي مِنْ حَديثِ السَّيِّدةِ رِيد، وَقالَ إِنّي فَتاةٌ شِرِّيرةٌ كاذِبةٌ يَجِبُ أَنْ يَتَجَنَّبَني الجَميعُ. وَقَبْلَ أَنْ يَتْرُكَنا قالَ لي: «اِبْقَي حَيْثُ أَنْتِ لِمُدَّةِ نِصْفِ ساعةٍ عِقابًا لَكِ، وَلا يَتَحَدَّثْ مَعَكِ أَحَدٌ حَتّى صَباحِ الغَدِ.»

كِدْتُ أَموتُ خَجَلًا وَأَسًى وَحَسْرةً. الآنَ سَيَكْرَهُني الجَميعُ، وَسَأَعودُ إلى عُزْلَتي وَتَعاسَتي. ووَسْطَ مَخاوِفي، أَقْبَلَتْ هِيلِين بيرنْز مُبْتَسِمةً لِتُشَجِّعَني، ولَمْ أَتْرُكْ مَقْعَدي حَتّى ذَهَبَ الجَميعُ لِتَناوُلِ الشّاي،

وَجَلَسْتُ في أَحَدِ أَرْكانِ الحُجْرةِ أَبْكي حَظِّيَ العاثِرَ. وَسَرْعانَ ما عادَتْ هِيلين إلى الحُجْرةِ وَقالَتْ لي: «هَيّا يا جين جَفِّفي دَمْعَكِ وَتَعالَيْ لِتَأْكُلي بَعْضَ الطَّعامِ. كُلُّنا نُخالِفُ رَأيَ السَّيِّدِ بُرو كِلْهِرسْت عَنْكِ، وَنَشْعُرُ بِالعَطْفِ نَحْوَكِ.»

في تِلْكَ اللَّحْظةِ، لَمْ أَعُدْ أَخْشى السَّيِّدَ بُرو كِلْهِرسْت وَلَمْ أَعُدْ أَحْتَرِمُهُ أَوْ أَهابُهُ.

قالَتْ هِيلين: «ماذا يَعْنيكِ في رَأْيِ السَّيِّدِ بُرو كِلْهِرسْت عَنْكِ؟ أَنْتِ تَعْلَمينَ أَنَّكِ لَسْتِ كاذِبَةً وَلا شِرِّيرةً، فَلا تَهْتَمّي هَكَذا بِما يَقولُهُ النّاسُ عَنْكِ ما دُمْتِ تَعْلَمينَ في سَريرةِ نَفْسِكِ أَنَّهُمْ مُخْطِئونَ.» وَبَدَأْتُ أَتَمالَكُ نَفْسي.

حِينَئِذٍ دَخَلَتِ الآنِسةُ تِمْبِل الحُجْرةَ وَقالَتْ: «تَعالَيْ إلى غُرْفَتي يا جِين، أُريدُ أَنْ أُحَدِّثَكِ عَنْ شَيْءٍ؛ وَأَنْتِ أَيْضًا يا هِيلِين، إذا أَرَدْتِ.»

جَلَسْنا بِالْقُرْبِ مِنَ المِدْفَأَةِ نَتَحَدَّثُ، وَكانَتِ الغُرْفَةُ مُريحةً، وَسَأَلَتْني الآنِسةُ تِمْبِل: «هَلْ أَشْبَعْتِ رَغْبَتَكِ في البُكاءِ يا جِين؟ هَلْ تَشْعُرينَ الآنَ بِالرّاحةِ؟»

أَجَبْتُ: «لا يا آنِسةُ تِمْبِل.»

سَأَلَتْني: «لِماذا؟»

أَجَبْتُ: «لِأَنَّ السَّيِّدَ بُرو كِلْهِرسْت لَمْ يَكُنْ مُحِقًّا فيما قالَهُ عَنّي،

وَأَخافُ أَنْ يَكونَ حَديثُهُ قَدْ تَرَكَ أَثَرًا سَيِّئًا فَتكْرَهونَني.»

قالَتْ: «أَرْجوكِ يا جِين أَنْ تُحَدِّثينا عَنْ حَياتِكِ في مَنْزِلِ خالَتِكِ، وَدَعينا نَحْنُ نُقَرِّرُ ما إِذا كانَ السَّيِّدُ بْرو كِلْهِرسْت مُحِقًّا أَمْ لا.»

تَوَخَّيْتُ الصِّدْقَ في كُلِّ ما أَقولُ وَأَنا أَرْوي قِصَّتي لِلْآنِسةِ تِمْبل، حَتَّى، أَتَيْتُ إِلى الجُزْءِ الَّذي لَعِبَهُ الدُّكْتور لُويد في حَياتي، فَقالَتْ:

«نَعَمْ لَقَدْ سَمِعْتُ عَنْ هَذا الطَّبيبِ، إِنَّهُ رَجُلٌ فاضِلٌ أَمينٌ، وَسَأَكْتُبُ لَهُ وَأَسْتفْسِرُ عَنْكِ، فَإِذا ما طابَقَتْ رِوايَتُهُ رِوايَتَكِ، أَعِدُكِ بِأَنْ أُعْلِنَ لِلْجَميعِ طِيبَتَكِ وَحُسْنَ خُلُقِكِ. وَالآنَ هَيّا، أَنْتُما ضَيْفَتايَ اللَّيْلَةَ، وَلْنَتَناوَلِ الشّايَ مَعًا.»

أَثْناءَ تَناوُلِ الشّاي، كانَتِ الآنِسةُ تِمْبِل وَهِيلين تَتَحَدَّثانِ عَنْ كُتُبٍ وَعَنْ بِلادٍ نائِيةٍ لَمْ أَسْمَعْ عَنْها مِنْ قَبْلُ. وَشَعَرْتُ بِجَهْلي، وَأَصْغَيْتُ لَهُما بِكُلِّ اهْتِمامٍ، وَما أَسْرَعَ ما مَضى الوَقْتُ وَحانَ مَوْعِدُ النَّوْمِ.

قَبَّلَتْنا الآنِسةُ تِمْبِل قَبْلَ أَنْ نَنْصَرِفَ، وَنَعِمْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ بِنَوْمٍ هادِئ.

وَصَلَ رَدُّ الدُّكْتور لُويد بَعْدَ أُسْبوعٍ مُؤَيِّدًا أَقْوالي، وَوَفَتِ الآنِسةُ تِمْبِل بِوَعْدِها، وَأَعْلَنَتِ للجَميعِ أَنَّ ما قالَهُ عَنِّي السَّيِّدُ بْرو كِلْهِرسْت لَمْ يَكُنْ صَحيحًا. وَبَدَأْتُ مُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظةِ أَنْعَمُ بِالحَياةِ داخِلَ لُووُد.

الْفَصْلُ السّابِعُ

مَضَى الشِّتاءُ وَحَلَّ الرَّبيعُ وَحَلَّتْ مَعَهُ المَتاعِبُ. كانَتِ الفَتياتُ ضَعيفاتِ البِنْيَةِ، بِسَبَبِ ما عانَيْنَ مِنْ بَرْدٍ وَسُوءِ تَغْذِيَةٍ أَثْناءَ الشِّتاءِ، وَأَصْبَحْنَ قَليلاتِ المُقاوَمَةِ وَفَريسَةً سَهْلَةً لِلْمَرَضِ. وَانْتَشَرَ وَباءُ حُمَّى التَّيْفوسِ، وَأَصابَ خَمْسًا وَأَرْبَعينَ فَتاةً مِنَ الثَّمانينَ. وَماتَتِ الكَثيراتُ مِنْهُنَّ، وَتَوَقَّفَتِ الدِّراسَةُ، وَانْشَغَلَتِ المُدَرِّساتُ بِالتَّمْريضِ، عَلى حينَ أَصْبَحْتُ وَالفَتياتُ اللَّاتي لَمْ يُصَبْنَ بِالمَرَضِ أَحْرارًا نَتَصَرَّفُ في وَقْتِنا كَيْفَما نَشاءُ. وَقَضَيْنا مُعْظَمَ وَقْتِنا نَتَنَزَّهُ في الخَلاءِ، دونَ أَنْ نَخافَ سُلْطَةَ السَّيِّدِ بْرو كِلْهِرِسْت لِأَنَّهُ لَمْ يَقْتَرِبْ مِنْ أَبْوابِنا طَوالَ مُدَّةِ انْتِشارِ الوَباءِ.

لَمْ تَكُنْ هِيلِين ضِمْنَ مَنْ أَصابَتْهُنَّ حُمَّى التَّيفوسِ، وَلَكِنَّها كانَتْ تُعاني مِنْ مَرَضٍ عُضالٍ اشْتَدَّتْ عَلَيْها وَطْأَتُهُ وَلازَمَتِ الفِراشَ. وَذاتَ مَساءٍ في أَوائِلِ شَهْرِ يُونيه، رَأَيْتُ مَرْكَبَةَ الطَّبيبِ تَقِفُ بِبابِنا، وَفَكَّرْتُ: «لا بُدَّ أَنَّ إِحْدى الفَتَياتِ مَريضَةٌ جِدًّا وإِلَّا لَما حَضَرَ الطَّبيبُ مُتَأَخِّرًا هَكَذا.» وَتَذَكَّرْتُ هِيلين فَجْأَةً، فَأَسْرَعْتُ إِلى إِحْدى المُدَرِّساتِ أَسْتَفْسِرُ عَنْها، فَقالَتْ: «إِنَّ حالَةَ هِيلِين سَيِّئَةٌ جِدًّا، وَلا يَتَوَقَّعُ الطَّبيبُ أَنْ تَعيشَ طَويلًا، وَحالَتُها لا تَسْمَحُ بِزيارَتِها.»

مَضَيْتُ إِلى حُجْرَتي لِلنَّوْمِ، وَأَمْضَيْتُ ساعَتَيْنِ في الفِراشِ أَتَخَيَّلُ أَنّي أَسْمَعُ صَوْتَ هِيلِين، وَقَرَّرْتُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَيْها، وَذَهَبْتُ إِلى غُرْفَتِها وَنادَيْتُ بِهُدوءٍ: «هِيلِين! أَمُسْتَيْقِظَةٌ أَنْتِ؟»

قالَتْ: «مَنْ؟ جِين؟ ما أَحْلى أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَكِ.» فَقَبَّلْتُها وَشَعَرْتُ بِبُرودةِ جِسْمِها، كَما لاحَظْتُ أَنَّها ازْدادَتْ نَحافةً وَضَعْفًا، لَكِنَّ ابتسامَتَها الحُلْوةَ بَقِيَتْ وَلَمْ تُفارِقْها.



قُلْتُ: «كانَ لا بُدَّ لي أَنْ أَراكِ بَعْدَ أَنْ سَمِعْتُ بِمَرَضِكِ.»

قالَتْ: «لَقَدْ أَحْسَنْتِ تَوْقيتَ زِيارَتِكِ يا جين – فَهَذِهِ زِيارَةُ الوَداعِ.»

قُلْتُ: «لَمْ أَسْمَعْ أَنَّكِ تَنْوينَ السَّفَرَ. إلى أَيْنَ سَتَذْهَبينَ يا هيلين؟»

اِنْتابَتْها نَوْبَةُ سُعالٍ شَديدَةٌ وَطَويلَةٌ مَنَعَتْها مِنَ الإِجابَةِ، وَقالَتْ بَعْدَها: «لا تَحْزَني يا جين، سَأَرْحَلُ إلى جِوارِ رَبِّي، وَأَنا سَعيدَةٌ بِهَذا الرَّحيلِ.»

لَمْ أَجِدْ رَدًّا أَقولُهُ، بَلْ طَوَّقْتُها بِذِراعَيَّ وَلَبِثْتُ مَعَها حَتَّى راحَتْ في النَّوْمِ، وَحَضَرَتِ الآنِسَةُ تِمْبِل وأَعادَتْني إلى غُرْفَتي لِأَنامَ.

في اليَوْمِ التّالي بَلَغَني خَبَرُ وَفاةِ هيلين؛ فَقَدْ تُوُفِّيَتْ في اللَّيْلِ أَثْناءَ نَوْمِها.

الْفَصْلُ الثّامِنُ

أَظُنُّني قُلْتُ ما فيهِ الكِفايةُ عَنْ أَيّامِ طُفولَتي، وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ القَليلِ أَسْرُدُهُ عَنْ حَياتي في لُووُد.

طَرَأَتْ عِدَّةُ تَغْييراتٍ عَلى المَدْرَسةِ بَعْدَ زَوالِ وَباءِ التَّيْفوسِ الَّذي كانَ سَبَبًا في أَنْ يَسْمَعَ العالَمُ الخارِجيُّ عَنّا وَيَعْلَمَ بِمَآسينا، وَانْتَقَلَتِ المَدْرَسةُ إِلى مَكانٍ أَفْضَلَ وَأَدْفَأَ. كَما طَرَأَ تَعْديلٌ في كَمِّيَّةِ الطَّعامِ وَنَوْعِهِ، وَكَذلِكَ تَحَسَّنَ المَلْبَسُ، وَأَصْبَحَتِ الحَياةُ أَقَلَّ مُعاناةً وَأَفْضَلَ مِمّا كانَتْ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ.

بَقيتُ في لُووُد ثَماني سَنَواتٍ، قَضَيْتُ مِنْها سِتًّا في الدِّراسةِ، وَسَنَتَيْنِ في التَّدْريسِ حَيْثُ صِرْتُ مُدَرِّسةً بَعْدَ انْتِهاءِ دِراسَتي، وَأَصْبَحَتِ الآنِسةُ تِمْبِل صَديقَتي.

في نِهاية هذِهِ المُدَّةِ تَزَوَّجَتِ الآنِسةُ تِمْبِل، وَرَحَلَتْ مَعَ زَوْجِها بَعيدًا عَنّا. وَبَعْدَ رَحيلِها شَعَرْتُ بِرَغْبَتي في الرَّحيلِ، فَلَمْ أَعُدْ أَعْتَبِرُ لُووُد بَيْتي. وَوَدَدْتُ أَنْ أَرَى الحَياةَ وَأُمارِسَها خارِجَ جُدْرانِها، وَلَمْ يَكُنْ لي أَصْدِقاءُ أَلْجَأُ إِلَيْهِمْ. وَبَعْدَ تَفْكيرٍ طَويلٍ، اهْتَدَيْتُ إِلى حَلٍّ لِمُشْكِلَتي. نَعَمْ، لِماذا لا أَنْشُرُ في الصُّحُفِ إِعْلانًا أَطْلُبُ عَمَلًا؟! وَهذا ما حَدَثَ بِالفِعْلِ؛ فَقَدْ نَشَرْتُ الإِعْلانَ الآتي:

«شابَّةٌ تُريدُ عَمَلًا كَمُرَبِّيةٍ لِلْأَوْلادِ دونَ سِنِّ الرّابِعَةَ عَشْرةَ. يُمْكِنُها تَعْليمُ اللُّغَتَيْنِ: الفَرَنْسيَّةِ والإِنْجِليزيَّةِ، كَذلِكَ الرَّسْمِ والمُوسيقى. العُنْوانُ مَكْتَبُ بَريدِ لُووُد.»

كُنْتُ قَدْ كَتَبْتُ عُنْواني عَلى مَكْتَبِ بَريدِ لُوُد، لِعَدَمِ رَغْبَتي في أَنْ يَعْلَمَ أَحَدٌ بِنِيَّتي. وَمَرَّ الوَقْتُ بِبُطْءٍ، وَبَعْدَ أُسْبوعٍ، ذَهَبْتُ إلى مَكْتَبِ البَريدِ أَسْتَفْسِرُ عَنْ وصولِ رَسائِلَ بِاسْمي؛ وَوَجَدْتُ رِسالَةً واحِدَةً مِنْ سَيِّدَةٍ اسْمُها فِيرْفاكْس تُقيمُ في ثُورنْفيلد هُول بِالقُرْبِ مِنْ مِيلْكُوت، تَطْلُبُ مِنِّي القِيامَ بِتَعْليمِ فَتاةٍ صَغيرَةٍ في التّاسِعَةِ مِنْ عُمْرِها، بِأَجْرٍ مِقْدارُهُ ثَلاثونَ جُنَيْهًا سَنَوِيًّا، وَطَلَبَتْ مِنِّي سُرْعَةَ الرَّدِّ بِالقَبُولِ أَوِ الرَّفْضِ.

بَدا مِنْ خَطِّ الرِّسالَةِ أَنَّ كاتِبَتَها عَجوزٌ، وَرُحْتُ أَنْسِجُ حَوْلَها وَحَوْلَ ثُورنْفيلد صُوَرًا رائِعَةً مِنْ خَيالي.

ذَهَبْتُ لِأُخْبِرَ النّاظِرَةَ الجَديدَةَ بِأَنّي وَجَدْتُ عَمَلًا، وَطَلَبْتُ مِنْها أَنْ تَقومَ بِإِبْلاغِ السَّيِّدِ بْرو كِلْهِرست عَنْ عَزْمي عَلى تَرْكِ المَدْرَسَةِ، فَأَجابَ بِأَنَّهُ يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَكْتُبَ لِلسَّيِّدَةِ رِيد خالَتي لِأُبْلِغَها ذٰلِكَ. وَعِنْدَما كَتَبْتُ لَها، وَصَلَني رَدُّها الَّذي تَقولُ فيهِ: «أَنْتِ حُرَّةٌ! اِفْعَلي ما تَشائينَ، وَاذْهَبي إِلى حَيْثُ تُريدينَ، أَنا لا أَوَدُّ أَنْ أَعْرِفَ عَنْكِ شَيْئًا.»

كَتَبْتُ بَعْدَ ذٰلِكَ لِلسَّيِّدَةِ فِيرْفاكْس أُخْبِرُها بِقَبُولي الوَظيفَةَ، وَأُعْلِمُها بِأَنّي سَأَكونُ في ثُورنْفيلد هُول بَعْدَ أُسْبوعَيْنِ. وَمَرَّ الأُسْبوعانِ بِسُرْعَةٍ، وفي اليَوْمِ السّابِقِ لِرَحيلي، وَحَيْثُ جَلَسْتُ أَسْتَريحُ، حَضَرَتِ الخادِمَةُ لِتُخْبِرَني بِوجودِ زائِرٍ لي في حُجْرَةِ الجُلوسِ. أَسْرَعْتُ لِأَرى مَنْ يَكونُ الزّائِرُ؛ فَأَقْبَلَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ تَقولُ بِلَهْفَةٍ: «إِنَّها هِيَ بِعَيْنِها. أَلا تَعْرِفينَني يا جِين، هَلْ نَسيتِ صَديقَتَكِ بِسي؟»

كانَتْ بِسي قَدْ تَزَوَّجَتْ، وَرُزِقَتْ بِابْنَةٍ سَمَّتْها جِين – كَاسْمي –

وَحَدَّثَتْني عَنْ عائِلةِ رِيد قائِلَةً: «لَقَدْ أَصْبَحَ جُون رَجُلًا مُسْرِفًا سِكِّيرًا مُسْتَهْتِرًا؛ وَكانَتْ جُورْجِيانا عَلى وَشْكِ الزَّواجِ مِنْ عامٍ مَضى، وَلكِنَّ أُخْتَها إليزا لَمْ تَرْضَ عَنْ ذلِكَ وَمَنَعَتْ زَواجَها.»

وَشَعَرْتُ بِأَنَّ الحَياةَ في غِيتْسهيد هُول كانَتْ لا تَزالُ مَلْأَى بِالمَآسي. وَسَأَلَتْني بِسي عَمّا إذا كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ أَيَّ أَخْبارٍ عَنْ أُسْرةِ والِدي وَأَجَبْتُ بِالنَّفْي. ثُمَّ قالَتْ:

«كانَتِ السَّيِّدةُ رِيد تَقولُ دائِمًا إنَّهُمْ فُقَراءُ مُعْدِمونَ، وَلكِنْ مُنْذُ نَحْوِ سَبْعِ سَنَواتٍ حَضَرَ إلى غِيتْسهيد هُول زائِرٌ يُدْعَى السَّيِّدُ إير، وَطَلَبَ أَنْ يَراكِ. وَكانَ رَجُلًا مَهيبًا وَلَمْ يَبْدُ عَلَيْهِ أَنَّهُ فَقيرٌ. وَأَخْبَرَتْهُ السَّيِّدَةُ رِيد أَنَّكِ في المَدْرَسةِ، وَكانَ لِسوءِ الحَظِّ يُوْشِكُ عَلى السَّفَرِ في رِحْلَةٍ طَويلةٍ عَبْرَ البِحارِ، فَلَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ زيارَتِكِ في لُووُد.»

سَأَلْتُها: «إلى أَيْنَ سافَرَ يا بِسي؟ هَلْ تَتَذَكَّرينَ؟»

أَجابَتْ: «قالَ إنَّهُ ذاهِبٌ إلى جَزيرةٍ يُصَنِّعونَ فيها مُنْتَجاتِ الكُرومِ، وَلا أَتَذَكَّرُ اسْمَها.»

وَسَأَلْتُ: «هَلْ كانَتْ ماديرا؟»

أَجابَتْ: «نَعَمْ! نَعَمْ! هذا هُوَ الاسْمُ.»

لَمْ تَكُنْ بِسي تَعْرِفُ شَيْئًا عَنِ السَّيِّدِ رِيد أَكْثَرَ مِنْ ذلِكَ. وَانْتَقَلَ بِنا الحَديثُ إلى مَواضيعَ شَتَّى حَتَّى حانَ وَقْتُ ذَهابِها.

في اليَوْمِ التّالي ذَهَبْتُ إلى ثُورنْفيلد هُول لِمُواجَهةِ مُسْتَقْبَلي كُلِّهِ.

الْفَصْلُ التّاسِعُ

كانَتِ الرِّحْلَةُ إلى مِيلْكوت طَويلةً وَشاقَّةً. تَرَكْتُ لُوُود في السّاعةِ الرّابِعةِ صَباحًا، وَلَمْ تَصِلْ بِنا المَرْكَبَةُ إلّا في الثّامِنةِ مَساءً، حَيْثُ وَقَفَتْ أَمامَ فُنْدُقِ جورج، وَلَمْ تكُنْ هذِهِ لِسُوءِ الحَظِّ نِهايَةَ الرِّحْلةِ.

قابَلَني رَجُلٌ اسْمُهُ جُون، وَأَخَذَني مَعَهُ في عَرَبةٍ حَمَلَتْنا إلى ثُورنْفيلد هُول، وَكانَتِ اللَّيْلَةُ مُظْلِمةً، وَلَمْ أتَبيَّنْ شَيْئًا مِنْ مَعالِمِ الطَّريقِ.

عِنْدَما وَصَلْنا، فَتَحَتْ لَنا البابَ خادِمةٌ وَأَخَذَتْنا في الحالِ إلى حُجْرةِ السَّيِّدةِ فِيرْفاكْس. وَلَمْ تَكُنِ الحُجْرةُ فَسيحةً وَلكِنَّها بَدَتْ مُريحةً وَدافِئةً، وَشَعَرْتُ بِالِارْتياحِ نَحْوَ السَّيِّدةِ فِيرْفاكْس حالَما وَقَعَ نَظَري عَلَيْها.

كَلَّمَتْني بِعَطْفٍ وَحَنانٍ. قالَتْ: «تَعالَيْ قُرْبَ المِدْفَأةِ. لا بُدَّ أَنَّكِ مُتْعَبةٌ وَتَشْعُرينَ بِالْبَرْدِ بَعْدَ رِحْلَتِكِ الطَّويلةِ! ما رَأْيُكِ في بَعْضِ الطَّعامِ؟»

كانَتِ السَّيِّدةُ في نَحْوِ السِّتّينَ مِنْ عُمْرِها، صَغيرةَ الحَجْمِ، تَرْتَدي مَلابِسَ يَرْجِعُ عَهْدُها إلى أَكْثَرَ مِنْ ثَلاثينَ عامًا.

تَحَدَّثْنا أَثْناءَ تَناوُلي الطَّعامَ. وَعَلِمْتُ مِنْها أَنَّ تِلْميذَتي الصَّغيرةَ لَيْسَتِ ابْنَتَها، وَأَنَّها هِيَ نَفْسَها تَشْغَلُ مَرْكَزَ مُديرةٍ لِثُورنْفيلد هُول، وَلَيْسَتْ صاحِبَةَ المَنْزِلِ.

عِندَما فَرَغْتُ مِنَ العَشاءِ، أَخَذَتْني إلى حُجْرَتي في الطّابَقِ العُلْوِيِّ، وَكانَتْ مِثْلَ حُجْرةِ السَّيِّدةِ فِيرْفاكْس صَغيرةً وَلكِنَّها مُريحةٌ.

نِمْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ نَوْمًا عَميقًا، وَشَعَرْتُ بِأَنّي عَلى بابِ مَرْحلةٍ جَديدةٍ سَعيدةٍ مِنْ حَياتي.

في الصَّباحِ، كانَ الجَوُّ صَحْوًا وَالشَّمْسُ مُشْرِقةً، مِمّا أَشْعَرَني بِالسَّعادةِ وَالأمانِ. ارْتَدَيْتُ مَلابِسي عَلى عَجَلٍ، وَرُحْتُ أَسْتَكْشِفُ باقِيَ المَنْزِلِ. كانَتْ غُرَفُهُ كُلُّها، عَدا غُرْفَتي وَغُرْفَةَ السَّيِّدةِ فيرْفاكْس، كَبيرةً وَمَفْروشةً بِأَثاثٍ ثَمينٍ، وَمَعَ ذلِكَ كانَ يَسودُها جَوٌّ يُشْعِرُ بِالْفَراغِ وَالوَحْدةِ.

خَرَجْتُ إلى الحَديقةِ، فَرَأَيْتُ البَيْتَ مُنْعَزِلًا تَمامًا، تُحيطُ بِهِ التِّلالُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ، وَعلى بُعْدٍ مِنْهُ رَأَيْتُ قَرْيةً صَغيرةً. وَبَيْنَما أنا في الحَديقةِ حَضَرَتِ السَّيِّدةُ فيرْفاكْس وَقالَتْ بِابْتِسامةٍ رَقيقةٍ:

«صَباحَ الخَيْرِ! أَراكِ تَتَطَلَّعينَ إلى المَنْزِلِ. إِنَّهُ مَنْزِلٌ جَميلٌ، وَأَخْشى أَلّا يَظَلَّ عَلى جَمالِهِ إذا اسْتَمَرَّ صاحِبُهُ يُكْثِرُ مِنَ السَّفَرِ.»

سَأَلْتُ: «مَنْ صاحِبُهُ؟»

قالَتْ: «السَّيِّدُ روتْشِسْتر. ما أَغْباني! لَقَدْ نَسيتُ أَنْ أَذْكُرَ لَكِ اسْمَهُ مِنْ قَبْلُ.»

سَأَلْتُ: «هَلْ هِيَ ابْنَتُهُ الَّتي سَأَقومُ بِتَعْليمِها؟»

أجابَتْ: «لا! هِيَ طِفْلةٌ يَتيمةٌ تَعَهَّدَ السَّيِّدُ روتْشِسْتر بِرِعايَتِها عِنْدَ وَفاةِ والِدَيْها. وَقَدْ أَحْضَرَها مَعَه مِنْ فَرَنْسا وَاسْمُها أَديل فارِينْز. ها هِيَ مُقْبِلةٌ عَلَيْنا.»



أَقْبَلَتِ الفَتاةُ وَمَعَها وَصيفَتُها، وَكانَتا تَتَحَدَّثانِ مَعًا بِالْفَرَنْسِيَّةِ، وَأَخْبَرَتْني السَّيِّدَةُ فيرْفاكْس بِما لاقَتْهُ مِنْ صُعوباتٍ في التَّفاهُمِ مَعَ أَديل عِنْدَ وُصولِها. فَقَدْ كانَتْ أَديل وَوَصيفَتُها تَجْهَلانِ الإِنجِليزِيَّةَ تَمامًا، وَلَمْ يَكُنْ في ثورنْفيلد هُول مَنْ يَعْرِفُ الفَرَنْسِيَّةَ. ثُمَّ قالَتْ: «وَلكِنَّ أَديل نَبيهةٌ

وَتَتَعَلَّمُ بِسُرْعةٍ، وَقَدْ بَدَأْتُ أَفْهَمُ ما تَقولُ. مِسْكينةٌ! لا شَكَّ أَنَّها تُواجِهُ مَشاكِلَ كَثيرةً في هذا الجَوِّ الغَريبِ عَنْها.»

بَدَأْتُ أَتَحَدَّثُ مَعَ أَديل بِالْفَرَنْسِيَّةِ، وَسُرَّتْ لِذلِكَ كَثيرًا. وَأَثْناءَ الإفْطارِ حَدَّثَتْني عَنِ الحَياةِ في فَرَنْسا. وَكُنْتُ كَثيرًا ما أَنْسى أَنّي أَتَحَدَّثُ إلى طِفْلةٍ لا زالَتْ في التّاسِعَةِ مِنْ عُمْرِها.

وَبَعْدَ الإفْطارِ، ذَهَبْنا مَعًا إلى المَكْتَبةِ، ووَجَدْتُ في أَديل طِفْلةً مُتَوَسِّطةَ الذَّكاءِ لا تَسْتَقِرُّ في مَكانٍ واحِدٍ طَويلًا، وَرَأَيْتُ أَنْ أَقْتَصِرَ في ذلِكَ اليَوْمِ الأَوَّلِ عَلى اسْتِمْرارِ الدِّراسةِ حَتّى الظُّهْرِ.

طُفْتُ مَعَ السَّيِّدةِ فِيرْفاكْس داخِلَ المَنْزِلِ، وَرَأَيْتُ كَثيرًا مِنَ الحُجُراتِ الجَميلةِ وَلكِنَّ كُلَّ شَيْءٍ بَدا فارِغًا تَنْقُصُهُ الحَياةُ. وَسَأَلْتُها عَنِ السَّيِّدِ روتْشِسْتر وَعَمّا إذا كانَتْ تُحِبُّهُ.

أَجابَتْ: «نَعَمْ هُوَ دائِمُ العَطْفِ عَلَيَّ، وَلَقَدْ مَضَتْ عَلَيَّ سَنواتٌ طَويلةٌ في خِدْمَتِهِ، وَلَمْ أَجِدْ مِنْهُ ما يُعَكِّرُ صَفْوَ حَياتي، وَلكِنَّ هُناكَ كَثيرينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُ غَريبُ الأَطْوارِ مُتَقَلِّبٌ.»

سَأَلْتُ: «لِماذا؟»

أَجابَتْ: «لا أَعْلَمُ كَيْفَ أُفَسِّرُ لَكِ ذلِكَ. فَفي أَغْلَبِ الأَحْيانِ يَصْعُبُ التَّمييزُ ما إذا كانَ جادًّا أَوْ هازِلًا، راضِيًا أَوْ غاضِبًا، وَلكِنَّهُ بِصِفةٍ عامَّةٍ إنْسانٌ طَيِّبٌ مَحْبوبٌ.»

أَرَدْتُ أَنْ أَعْرِفَ المَزيدَ، وَلكِنَّها تَوَقَّفَتْ عَنِ الحَديثِ، وَكُنّا قَدْ

وَصَلْنا إلى الطّابَقِ الثّالِثِ. في هذا الطّابَقِ كانَتِ الحُجُراتُ صَغيرةً مُظْلِمةً، تَبْعَثُ في المَرْءِ شُعورًا بِالرَّهْبةِ وَالخَوْفِ.

سأَلْتُ: «هَلْ يَنامُ أَحَدٌ هُنا؟»

أَجابَتْ: «لا، إنَّ حُجُراتِ نَوْمِ الخَدَمِ تَقَعُ كُلُّها في أَعْلَى الجانِبِ الآخَرِ مِنَ البِناءِ.» ثُمَّ ضَحِكَتْ وَقالَتْ: «لَوْ كانَ هُناكَ شَبَحٌ في ثُورنْفيلد هُول لاتَّخَذَ لهُ مَقَرًّا هُنا.»

بَلَغْنا بابًا صَغيرًا يُؤَدِّي إلى السَّطْحِ، وَخَرَجْنا مِنْهُ لِنَتَمَتَّعَ في ضَوْءِ الشَّمْسِ بِمَنْظَرِ التِّلالِ المُحيطةِ بِنا. وَكانَ المَنْظَرُ في الحَقيقةِ خَلّابًا، فَلَبِثْنا قَليلًا ثُمَّ عُدْنا إلى الغُرْفةِ، وَعِنْدَها سَمِعْتُ صَوْتًا غَريبًا وَمُخيفًا، صَوْتًا يَجْمَعُ بَيْنَ الضَّحِكِ وَالصِّياحِ، فَتَساءَلْتُ: «ما هذا؟ هَلْ سَمِعْتِ؟»

رَدَّتِ السَّيِّدةُ فِيرْفاكْس قائِلَةً: «لا شَيْءَ! رُبَّما كانَ أَحَدَ الخَدَمِ، أَوْ قَدْ تَكونُ جرِيس بُوول، وَهذا أَرْجَحُ، فَهِيَ تَحْضُرُ هُنا كَثيرًا لِتُساعِدَ في الحِياكةِ.»

تَرَدَّدَ الصَّوْتُ ثانيةً وَلكِنْ بِنَبراتٍ أَهْدَأَ، وَلَوْ أَنَّهُ ظَلَّ مُخيفًا مُرْعِبًا. كانَ صَوْتَ ضِحْكةٍ وَلكِنَّها ضِحْكةٌ خاليةٌ مِنَ السَّعادةِ تَمامًا.

فُتِحَ بابُ غُرْفةٍ وَخَرَجَتْ مِنْها امْرَأَةٌ فيما بَيْنَ الثَّلاثينَ والأَرْبَعينَ مِنَ العُمْرِ، ذاتُ شَعْرٍ أَحْمَرَ وَقَوامٍ ممتلِئٍ، لَمْ يَكُنْ مَنْظَرُها غَريبًا أَو مُخيفًا. وَقالَتْ لَها السَّيِّدةُ فِيرْفاكْس: «لِمَ كُلُّ هذِهِ الضَّجَّةِ؟ تَذَكَّري ما قُلْتُهُ لَكِ يا جرِيس.» ثُمَّ الْتَفَتَتْ إلَيَّ تَسْأَلُني: «كَيْفَ وَجَدْتِ أَدِيل هذا الصَّباحَ؟» وَظَلَلْنا نَتَحَدَّثُ عَنْ أَدِيل حَتَّى هَبَطْنا إلى الطّابَقِ السُّفْلِيِّ.

الْفَصْلُ العاشِرُ

اسْتَمَرَّتْ حَياتي في ثُورنْفيلد هُول هادِئَةً مُسْتَقِرَّةً، وَكانَتِ السَّيِّدَةُ فِيرْفاكْس طَيِّبَةً رَحيمةً، كَذلِكَ كانَتْ أَدِيل مُجْتَهِدةً تَوّاقةً لِلتَّعْليم. وَتَعَلَّمَتِ الكَثيرَ، وَلكِنْ بِالرَّغْمِ مِنْ ذلِكَ كُلِّهِ، كُنْتُ أَشْعُرُ أَحْيانًا بِالمَلَلِ وَأَرْغَبُ في الإِثارةِ وَالتَّغْييرِ. وَكُنْتُ أَصْعَدُ إلى السَّطْحِ أَرْنُو إلى العالَمِ الخارِجيِّ حَيْثُ أَرَدْتُ أَنْ أَكُونَ.

كانَ صَوْتُ ضَحِكاتِ جرِيس بُوول المُزْعِجُ لا يَزالُ يَتَرَدَّدُ في أُذُني، وَكُنْتُ أَسْمَعُهُ مِنْ آنٍ لِآخَرَ، وَلكِنَّها كانَتْ هادِئَةً في مُعْظَمِ الأَوْقاتِ. وَفي أَحَدِ أَيّامِ يَنايِر أُصيبَتْ أَدِيل بِنَزْلَةِ بَرْدٍ، وَلَزِمَتْ فِراشَها، وَكانَتِ السَّيِّدَةُ فِيرْفاكْس تُريدُ الذَّهابَ إلى القَرْيَةِ لِإِرْسالِ خِطابٍ كَتَبَتْهُ، فَتَطَوَّعْتُ بِأَخْذِهِ بَدَلًا مِنْها. وَكانَتِ القَرْيةُ قَريبةً لا تَبْعُدُ عَنّا سِوى مِيلَيْنِ، وَكانَ الجَوُّ بارِدًا وَلكِنَّهُ صَحْوٌ.

تَرَكْتُ ثُورنْفيلد نَحْوَ السّاعةِ الثّالِثةِ بَعْدَ الظُّهْرِ، وَأَخَذْتُ أَصعَدُ الطَّريقَ إلى القَرْيةِ الواقِعةِ عَلى تَلٍّ، وَتَوَقَّفْتُ بَعْدَ حِينٍ وَاسْتَنَدْتُ إلى جِدارٍ لِأَسْتَريحَ. وَبَيْنَما أَنا كَذلِكَ سَمِعْتُ صَوْتًا، وَشاهَدْتُ رَجُلًا يَمْتَطي صَهْوَةَ حِصانِهِ، وَكَلْبًا يَجْمَعُ شَعْرُهُ بَيْنَ السَّوادِ وَالبَياضِ يَعْدو خَلْفَ الحِصانِ. مَرَّ الفارِسُ والكَلْبُ بِسُرْعةٍ، وَاسْتَأْنَفْتُ سَيْري. وَبَعْدَ بُرْهَةٍ سَمِعْتُ صَوْتًا مُزْعِجًا ثُمَّ رَأَيْتُ الحِصانَ وَقَدِ انْزَلَقَ فَوْقَ الجَليدِ بَيْنَما سَقَطَ الرَّجُلُ عَلى الأَرْضِ. أَخَذَ الكَلْبُ يَدورُ حَوْلَهُ وَيَنْبَحُ نُباحًا مُسْتَمِرًّا وَكَأَنَّهُ يَطْلُبُ النَّجْدةَ. وَأَسْرَعْتُ لِنَجْدَتِهِ، وَعِنْدَما وَصَلْتُ إلى المَكانِ كانَ

الحِصانُ قَدْ نَهَضَ أَمّا الرَّجُلُ فَقَدْ ظَلَّ عَلى حالِهِ.

سَأَلْتُهُ: «هَلْ يُمْكِنُني أَنْ أُقَدِّمَ أَيَّ مُساعَدَةٍ؟»

أَجابَ بِلَهْجَةٍ تَكادُ تَكونُ فَظَّةً: «لا! أَرْجوكِ أَنْ تَبْتَعِدي عَنْ طَريقِ الحِصانِ.»

قُلْتُ: «أَراكَ عاجِزًا عَنِ النُّهوضِ فَهَلْ أَسْتَدْعي لَكَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ القَرْيَةِ؟»

أَجابَ: «لا، أَشْكُرُكِ!»

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلى الكَلْبِ الَّذي اسْتَمَرَّ في نُباحِهِ وَنَهَرَهُ قائِلًا: «اسْكُتْ يا بَيْلُوت.»



حاوَلَ النُّهوضَ، وَأَدرَكْتُ مِنْ مَلامِحِ وَجْهِهِ أَنَّ ساقَهُ كانَتْ تُؤْلِمُهُ كُلَّما حَرَّكَها.

كانَ يُناهِزُ الأَرْبَعينَ مِنْ عُمْرِهِ، مُتَوَسِّطَ القامةِ، تَدُلُّ مَلامِحُ وَجْهِهِ عَلى الجِدِّ والصَّرامةِ. وَبالرَّغْمِ مِنْ خُشونةِ مُعامَلَتِهِ، لَمْ أُوجِسْ مِنْهُ خِيفةً كَعادَتي عِنْدَ مُقابَلةِ الغُرَباءِ.

أَلْحَحْتُ بِالسُّؤالِ قائِلةً: «كَيْفَ أَتْرُكُكَ هكَذا يا سَيِّدي في هذا الوَقْتِ مِنَ المَساءِ؟! دَعْني أُساعِدْكَ.»

قالَ: «حَسَنًا، أَمْسِكي لِيَ الحِصانَ، وَلكِنْ خُذي حَذَرَكِ، فَهُوَ يَرْفُسُ أَحْيانًا.»



بَذَلْتُ جَهْدِيَ كَيْ أُمْسِكَ الحِصانَ فَلَمْ أَتَمَكَّنْ، وَقالَ الرَّجُلُ: «لا بَأْسَ اتْرُكيهِ وَحْدَهُ فَهُوَ يَخافُ لِأَنَّكِ غَريبةٌ عَنْهُ. أَعْطِني يَدَكِ فَرُبَّما اسْتَطَعْتُ أَنْ أَنْهَضَ بِمُعاوَنَتِكِ.»

نَهَضَ الرَّجُلُ بِصُعوبةٍ رَغْمَ ما يُعانيهِ مِنَ الأَلَمِ، وَأَمْسَكَ بِالحِصانِ ثُمَّ قالَ: «وَالآنَ أَيَّتُها الشّابَّةُ، عُودي إلى مَنْزِلِكِ بِسُرْعةٍ، فَقَدْ تَأَخَّرَ بِكِ الوَقْتُ. أَيْنَ تَسْكُنينَ؟»

فَأَشَرْتُ إلى الوادي الَّذي تَحْتَنا حَيْثُ دارُ ثُورنْفيلد هُول وَقُلْتُ: «هُناكَ.»

سَأَلَني: «مَنْ صاحِبُ البَيْتِ؟»

أَجَبْتُ: «السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر.»

سَأَلَني: «هَلْ تَعْرِفينَ رُوتْشِسْتر هذا؟»

أَجَبْتُ: «كَلّا، لَمْ أَرَهُ في حَياتي.»

سَأَلَ: «أَلَيْسَ مُقيمًا في مَنْزِلِهِ؟»

أَجَبْتُ: «لا.»

سَأَلَ: «أَيْنَ هُوَ إذًا؟»

أَجَبْتُ: «لا أَدْري.»

سَأَلَني وَهُوَ يَتَأَمَّلُ مَلابِسي: «أَتَعْمَلينَ هُناكَ؟ هَلْ أَنْتِ خادِمةٌ؟»

أَجَبْتُ: «كَلّا، أَنا مُرَبِّيَةٌ أَقومُ بِتَعْليمِ فَتاةٍ صَغيرةٍ هُناكَ.»

قالَ مُتَمْتِمًا لِنَفْسِهِ: «مُرَبِّيَةٌ! كَيْفَ نَسيتُ ذلِكَ؟!» ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ قائلًا: «هَيّا أَسْرِعي في العَوْدةِ قَبْلَ أَنْ يَحُلَّ الظَّلامُ.»

قُلْتُ: «إِنِّي ذاهِبَةٌ أَوَّلًا إِلى مَكْتَبِ بَريدِ القَرْيَةِ لِأُرْسِلَ خِطابًا، ثُمَّ أَعودُ.»

قالَ: «أَسْرِعي إِذًا.»

اِمْتَطى جَوادَهُ وَمَضى في طَريقِهِ، وَسِرْتُ في طَريقي أُفَكِّرُ في هذِهِ المُقابَلةِ الَّتي بَدَتْ مُثيرةً وإِنْ كانَتْ تافِهةً. وَرُحْتُ أَتَكَهَّنُ فيمَنْ يَكونُ ذلِكَ الشَّخْصُ الغَريبُ صاحِبُ الشَّعْرِ الأَسْودِ وَالوَجْهِ الصّارِمِ.

لَمْ أُرِدِ العَوْدَةَ إِلى ثُورنْفيلد تِلْكَ اللَّيْلَة، فَقَدْ كُنْتُ أَكْثَرَ قَلَقًا مِنْ أَيِّ وَقْتٍ مَضى. وَعِنْدَما عُدْتُ إِلى المَنْزِلِ، أَدْهَشَني أَنْ أَرى كُلَّ غُرَفِ الطّابِقِ السُّفْليِّ مُضاءةً، وَسَمِعْتُ أَديل وَالسَّيِّدَةَ فيرْفاكْس تَتَحَدَّثانِ إِلى رَجُلٍ. تُرى ماذا حَدَثَ وَمَنِ الزّائِرُ؟

دَخَلْتُ حُجْرةَ السَّيِّدةِ فِيرْفاكْس فَوَجَدْتُ كَلْبًا يَرْقُدُ أَمامَ المِدْفأَةِ، كانَ نَفْسَ الكَلْبِ الَّذي رَأَيْتُهُ في الطَّريق. هَلْ كُنْتُ أَحْلُمُ؟ دَنَوْتُ مِنْهُ بِحَذَرٍ وَنادَيْتُ: «بَيْلُوت!» فَنَهَضَ وَأَقْبَلَ نَحْوي، وتَأَكَّدْتُ أَنَّ الرَّجُلَ الَّذي قابَلْتُهُ في الطَّريقِ، صاحِبَ هذا الكَلْبِ، هُوَ نَفْسُهُ السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر صاحِبُ ثُورنْفيلد هُول.

الْفَصْلُ الحادِيَ عَشَرَ

لَمْ أَلْتَقِ بِالسَّيِّدِ رُوتْشِسْتر حَتَّى مَساءِ اليَوْمِ التّالي حينَ أَبْلَغَتْني السَّيِّدَةُ فِيرْفاكْس أَنَّهُ دَعاني وَأَدِيل لِنَتَناوَلَ مَعَهُ الشّايَ. وَعِنْدَما دَخَلْنا غُرْفَةَ الجُلوسِ لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْنا، فَجَلَسْنا وَانْتَظَرْنا، ثُمَّ بَدَأَتِ السَّيِّدَةُ فِيرْفاكْس تَتَحَدَّثُ عَنِ الجَوِّ، وَاكْتَفى السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر بِطَلَبِ الشّاي. وَلَمّا سَأَلَتْهُ أَدِيل عَنِ الهَدِيَّةِ الَّتي وَعَدَها بِها، لَمْ يُجِبْها.

مَرَّ عَلَيْنا نَحْوَ نِصْفِ ساعةٍ ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ فَجْأَةً وَبَدَأَ يَسْأَلُني عَنْ حَياتي، وَعَنْ عائِلَتي، وَعَنِ المَدْرَسةِ، وَعَنِ السَّيِّدِ بُرو كِلْهِرسْت. ثُمَّ سَأَلَني: «هَلْ تَعْزِفينَ عَلى البِيانُو؟»

أَجَبْتُ: «قَليلًا يا سَيِّدي.»

قالَ: «إِذًا أَسْمِعينا بَعْضًا مِنْ عَزْفِكِ. اِذْهَبي إِلى المَكْتَبَةِ وَاعْزِفي عَلى البِيانُو المَوْجودِ هُناكَ.»

وَبَعْدَ أَنْ عَزَفْتُ قَليلًا عَلى البِيانُو ناداني قائِلًا: «هذا يَكْفي.» ثُمَّ سَأَلَني عَنْ أَعْماليَ الفَنِّيَّةِ، فَأَرَيْتُهُ بَعْضَ لَوْحاتيَ الَّتي رَسَمْتُها وَلَوَّنْتُها، فَسَأَلَ مُنْدَهِشًا: «هذا عَمَلُكِ؟ مَنْ عاوَنَكِ؟»

أَجَبْتُ: «لا أَحَدَ.»

اسْتَمَرَّ الحَديثُ بَيْنَنا، وَلَمْ أَرَهُ يَبْتَسِمُ قَطُّ طَوالَ المَساءِ، وَكانَ في الحَقيقَةِ فَظًّا، وَلكِنِّي لَمْ أُبالِ. وَقَدِ اسْتَمْتَعْتُ بِهذا التَّغْييرِ، وَخاصَّةً بَعْدَ

أَنْ أَمْضَيْتُ لَيالِيَ عَديدةً بِمُفْرَدي مَعَ السَّيِّدةِ فِيرْفاكْس.

في السّاعةِ التّاسِعةِ قالَ فَجْأةً: «طابَ مَساؤكُم.» وَتَرَكَنا.

سَأَلْتُ السَّيِّدَةَ فِيرْفاكْس وَنَحْنُ نَصْعَدُ السُّلَّمَ عَمّا إذا كانَ سُلوكُهُ دائِمًا فَظًّا هكَذا، فَظَهَرَتْ عَلَيْها الدَّهْشةُ وَقالَتْ: «هَلْ بَدا لَكِ فَظًّا؟ رُبَّما كانَ كَذلِكَ، وَلكِنِّي أَلِفْتُهُ بَعْدَ عِشْرةِ هذِهِ السِّنينَ الطِّوالِ، وَلا أُخْفي عَلَيْكِ يا جِين أَنَّ حَياتَهُ كانَتْ كُلُّها مَتاعِبَ، وَقَدْ يَكونُ ذلِكَ سَبَبَ ما رَأَيْتِ مِنْ غَرابةٍ في تَصَرُّفاتِهِ.»

سَأَلْتُها: «وَما هِيَ هذِهِ المَتاعِبُ؟»

أَجابَتْ: «لَسْتُ أَدْري، وَكُلُّ ما أَعْرِفُهُ هُوَ أَنَّ أَباهُ وَأَخاهُ بَقِيا غاضِبَيْنِ عَلَيْهِ سَنَواتٍ طَويلةً، وَلَمْ يُمِدّاهُ بِمُساعَدةٍ أَوْ مالٍ. وَلَمْ يَعُدْ إلى ثُورنْفيلد هُول إلّا مُنْذُ تِسْعِ سَنَواتٍ بَعْدَ أَنْ ماتَ والِدُهُ وَأَخوهُ، وَكَما رَأَيْتِ ما زالَ يَتَغَيَّبُ طَويلًا عَنْ هُنا.» وَلَمْ تَزِدِ السَّيِّدةُ فِيرْفاكْس عَلى ذلِكَ، وَخَجِلْتُ أَنْ أَطْلُبَ المَزيدَ.

لَمْ أَكُنْ أَرى السَّيِّدَ رُوتْشِسْتر إلّا نادِرًا، وَكانَ يَبْتَسِمُ في وَجْهي في بَعْضِ الأَوْقاتِ وَيَتَجاهَلُني تَمامًا في البَعْضِ الآخَرِ.

وَذاتَ مَساءٍ أَرْسَلَ يَسْتَدْعيني أَنا وَأَدِيل وَالسَّيِّدَةَ فِيرْفاكْس. وَعِنْدَما دَخَلْنا حُجْرَةَ الجُلوسِ أَعْطى أَدِيل الهَدِيَّةَ الَّتي وَعَدَها بِها، وَطَلَبَ مِنْها أَنْ تَنْصَرِفَ لِتَفْتَحَها مَعَ السَّيِّدةِ فِيرْفاكْس. وَبَعْدَ أَنِ انْصَرَفَتا سَأَلَني: «آنِسةُ إير! هَلْ تَرَيْنَني وَسيمَ الطَّلْعةِ؟»

دَهِشْتُ لِهذا السُّؤالِ، وَقَبْلَ أَنْ أُفَكِّرَ أَجَبْتُ: «كَلّا يا سَيِّدي.»

ضَحِكَ، وَكانَتْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَراهُ يَضْحَكُ وَقالَ: «أَنْتِ حَقًّا فَتاةٌ غَريبةُ الأَطْوارِ. أَراكِ دائِمًا هادِئةً مُؤَدَّبةً وَديعةً، وَالآنَ أُفاجَأُ بِصَراحَتِكِ وَصِدْقِكِ! يُعْجِبُني ذلِكَ فيكِ، لِأَنَّني أُحِبُّ الصِّدْقَ وَالأَمانةَ في القَوْلِ والعَمَلِ كَما أَكْرَهُ التَّمَلُّقَ وَالنِّفاقَ.»

قُلْتُ: «أَنا آسِفةٌ يا سَيِّدي. لَقَدْ أَمْضَيْتُ حَياتي بَعيدةً عَنْ آدابِ المُجْتَمعاتِ وَالمُجامَلةِ.»

قالَ: «لا بَأْسَ، أَنا سَعيدٌ حَقًّا لِأَمانَتِكِ وَصِدْقِكِ، أَلا تَجْلِسينَ مَعي بُرْهةً تُحَدِّثينَني؟ فَأَنا أَشْعُرُ بِحاجةٍ لِمَنْ أَتَحدَّثُ مَعَهُ في هذا المَساءِ.»

بَقيتُ صامِتةً فَقالَ: «أَرْجوكِ حَدِّثيني.»

قُلْتُ: «عَنْ أَيِّ شَيْءٍ يا سَيِّدي؟» وَلَمْ أَجِدْ ما أَقولُ، فَابْتَسَمَ وَقالَ: «أُريدُ أَنْ نَتَحدَّثَ كَأَصْدِقاءَ.»

قُلْتُ: «يُسْعِدُني ذلِكَ، وَلكِنِّي لا أَجِدُ ما أَتَحَدَّثُ عَنْهُ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تَسْأَلَني وَأَنا أُجيبُ؟»

طالَ حَديثُنا وَامْتَدَّ. حَدَّثَني عَنْ حَياتِهِ وَلكِنَّهُ لَمْ يُخْبِرْني عَنْ نَوْعِ المَتاعِبِ الَّتي صادَفَتْهُ. قالَ فَقطْ إِنَّها عَسيرةٌ، وَإِنَّهُ ارْتَكَبَ أَخْطاءً نَدِمَ عَلَيْها وَلا يَزالُ يُعاني عَواقِبَها. حاوَلْتُ أَنْ أُخَفِّفَ عَنْهُ، وَلكِنَّهُ بَدا في آخِرِ الحَديثِ كَمَنْ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ. وَفي السّاعةِ التّاسِعةِ قالَ فَجْأَةً: «طابَ مَساؤُكِ!» فَتَرَكْتُهُ وَانْصَرَفْتُ.

الْفَصْلُ الثّانيَ عشَرَ

بَيْنَما كُنّا نَسيرُ في الحَديقةِ أَنا وَأَديل قابَلْنا السَّيِّدَ رُوتْشِسْتر، فَأَبْدى رَغْبَتَهُ في أَنْ يُحَدِّثَني، وَطَلَبَ مِنْ أَديل أَنْ تَذْهَبَ وَتَلْهُوَ مَعَ الكَلْبِ. وَبَدَأَ يُحَدِّثُني عَنْ والِدَةِ أَديل، فَقَدْ قابَلَها في باريس وَكانَتْ تَعْمَلُ مُغَنِّيَةً وَراقِصةً، وَأَحَبَّها حُبًّا جَمًّا، إلّا أَنَّها تَرَكَتْهُ وَذَهَبَتْ مَعَ رَجُلٍ آخَرَ. وَتُوفِّيَتْ بَعْدَ ذلِكَ بِقَليلٍ تارِكةً ابْنَتَها أَديل وَحيدةً دونَ عائِلٍ. وَتَعَهَّدَها بِرِعايَتِهِ رَغْمَ أَنَّها لَمْ تَكُنِ ابْنَتَهُ، وَأَحْضَرَها مَعَهُ إلى إنْجِلْترا.

قالَ: «عَجَبًا إنَّكِ امْرَأَةٌ ذاتُ سِحْرٍ وَمَقْدِرةٍ عَلى جَعْلِ النّاسِ يَفْتَحونَ لَكِ سَرائِرَهُمْ. فَهاأَنَذا أُحَدِّثُكِ عَنْ نَفْسي بِكُلِّ سُهولَةٍ، وَهذا شَيْءٌ لَمْ أَفْعَلْهُ قَطُّ.» ثُمَّ اسْتَمَرَّ يُحَدِّثُني عَنْ سِيلين – والِدةِ أَديل – وَكانَ أَثْناءَ حَديثِهِ يَرْفَعُ بَصَرهُ إلى أَعْلى حَيْثُ الطّابَقُ الثّالِثُ. وَكُنْتُ أَشْعُرُ أَنَّهُ يَتَحَدَّثُ وَكَأَنَّهُ يُريدُ الهُروبَ مِنْ شَيْءٍ ما، شَيْءٍ فَظيعٍ وَرَهيبٍ لَمْ أَعْرِفْهُ.

بَدَأَ سُلُوكُهُ نَحْوي يَتَغَيَّرُ بَعْدَ ذلِكَ الحَديثِ، وَكانَ يَبْدو أَسعَدَ حالًا. وَكَثيرًا ما دَعاني مَعَ أَديل لِتَمْضيةِ بَعْضِ الوَقْتِ مَعَهُ في حُجْرةِ الجُلوسِ. وَكُنّا نَحْنُ الثَّلاثَةَ نَجْلِسُ، فَتَلْعَبُ أَديل مَعَ الكَلْبِ، وَنَتَحَدَّثُ نَحْنُ الاثْنَيْنِ.

كانَ حَديثُهُ شائِقًا. حَدَّثَني عَنْ أَشْخاصٍ وَأَماكِنَ بَعيدةٍ كانَ قَدْ ذَهَبَ إلَيْها في رِحْلاتِهِ، وَشَعَرْتُ بِأَنَّنا حَقًّا أَصْبَحْنا صَديقَيْنِ. وَبِالرَّغْمِ مِنْ كُلِّ أَخْطائِهِ أُعْجِبْتُ بِهِ، وَعَبَثًا حاوَلْتُ أَنْ أَرْدَعَ نَفْسي وَأَتَذَكَّرَ أَنَّهُ السَّيِّدُ وَما أَنا إلّا مُرَبِّيَةٌ مِسْكينةٌ.

الفَصْلُ الثّالِثَ عَشَرَ

مَضى شَهْرانِ عَلى وُجودِ السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر في ثُورنْفيلد هُول، وَأَثارَ هذا دَهْشَةَ السَّيِّدَةِ فِيرْفاكْس لأَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ أَنْ أَطالَ مُدَّةَ بَقائِهِ في ثُورنْفيلد كُلَّ هذا الوَقْتِ.

وَتَحَدَّثَ مَعي كَثيرًا أَثْناءَ ذلِكَ الوَقْتِ، وَلكِنِّي لَمْ أَتَبَيَّنِ الشَّيْءَ الَّذي كانَ يَكْرَهُهُ في ثُورنْفيلد هُول. وَفي مُعْظَمِ الأَحْيانِ كانَ يَبْدو سَعيدًا أَثْناءَ حَديثِنا في المَساءِ. وَلكِنَّ نَظَراتِ الكَراهِيَةِ وَالأَسى الَّتي شاهَدْتُها في الحَديقَةِ كانَتْ تُعاوِدُهُ بَيْنَ وَقْتٍ وَآخَرَ.

ذاتَ لَيْلَةٍ، بَيْنَما كُنْتُ في فِراشي أُفَكِّرُ، كَما فَكَّرْتُ مِنْ قَبْلُ، فيما عَساهُ أَنْ يَكونَ سِرُّ السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر الدَّفينُ، سَمِعْتُ صَوْتًا خارِجَ بابِ مَخْدَعي (غُرْفَةِ نَوْمي). كانَ صَوْتًا خافِتًا يَجْمَعُ بَيْنَ الضَّحِكِ وَالصُّراخِ، صَوْتًا سَمِعْتُهُ مِنْ قَبْلُ. قُمْتُ مِنْ فِراشي مُسْرِعَةً. فَسَكَتَ الصَّوْتُ بِضْعَ دَقائِقَ حَتّى ظَنَنْتُ أَنَّني كُنْتُ أَحْلُمُ، وَإِذا بِيَدٍ تُمْسِكُ بِمِقْبَضِ البابِ فَسَأَلْتُ مَذْعورَةً: «مَنْ بِالبابِ؟» وَلَمْ يُجِبْني أَحَدٌ.

خِفْتُ وَلكِنِّي تَذَكَّرْتُ أَنَّ الكَلْبَ بَيْلُوت يَطوفُ في المَنْزِلِ لَيْلًا، فَاطْمَأَنَّتْ نَفْسي قَليلًا، وَعُدْتُ لِأَنامَ. وَفَجْأَةً، سَمِعْتُ الصَّوْتَ يَتَكَرَّرُ، وَكانَ في هذِهِ المَرَّةِ أَعلى مِنَ المَرَّةِ السّابِقَةِ، وَصادِرًا بِالقُرْبِ مِنْ بابِ مَخْدَعي، ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتَ أَقْدامٍ تَصْعَدُ إِلى الطّابِقِ الثّالِثِ. فَقُمْتُ بِهُدوءٍ وَفَتَحْتُ البابَ وَرَأَيْتُ خارِجَهُ شَمْعَةً مُضاءَةً. سَأَلْتُ نَفْسي: «هَلْ



كانَ ذلِكَ حَقًّا صَوتَ جريس بُوول؟ هَلْ هِيَ مَجْنونةٌ أَمْ كُنْتُ أَحْلُمُ؟»
وَقَرَّرْتُ أَنْ أَسْتَدْعيَ السَّيِّدةَ فِيرْفاكْس خَشْيةَ أَنْ يَكونَ قَدْ وَقَعَ مَكْروهٌ.

كانَ الجَوُّ خارِجَ حُجْرَتي مُشْبعًا بِالدُّخانِ الَّذي رَأَيْتُهُ يَتَصاعَدُ مِنْ حُجْرةِ السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر. كانَ بابُ الغُرْفةِ مَفْتوحًا، وَتَنْبَعِثُ مِنَ الحُجْرةِ رائِحةُ شَيْءٍ يَحْتَرِقُ. أَسرَعْتُ إلى داخِلِ الحُجْرةِ، فَوَجَدْتُ السَّيِّدَ رُوتْشِسْتر نائِمًا والفِراشُ يَحْتَرِقُ مِنْ حَوْلِهِ، حاوَلْتُ إيقاظَهُ فَلَمْ أُفلِحْ، فَأَسْرَعْتُ وَأَحْضَرْتُ بَعْضَ الماءِ وَأَلْقَيْتُهُ فَوْقَ الفِراشِ. خَمَدَتِ النّارُ وَاسْتَيْقَظَ السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر يَسْأَلُ غاضِبًا: «ما الخَبَرُ؟ ماذا حَدَثَ؟ ما سَبَبُ هذا البَلَلِ؟»

أَجَبتُ: «كانَتِ النّارُ مُشْتَعِلةً في الفِراشِ فَأَلْقَيْتُ عَلَيْها الماءَ لِأُطْفِئَها.»

تَساءَلَ: «أَهذِهِ أَنْتِ يا جِين؟ ماذا أَتى بِكِ إلى هُنا في مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ؟»

قُلْتُ: «أَرْجوكَ أَنْ تَنْهَضَ. فَقَدْ حَدَثَ شَيْءٌ فَظيعٌ. اِنْتَظِرْ حَتّى أُحْضِرَ لَكَ شَمْعةً.» ثُمَّ ذَهَبْتُ وَأَحْضَرْتُ الشَّمْعةَ الَّتي وَجَدتُها خارِجَ بابي.

سَأَلَني: «مَنْ فَعَلَ هذا؟» وَأَخْبَرْتُهُ بِكُلِّ ما سَمِعْتُ وَرَأَيْتُ، وَأَصْغى إلَيَّ في صَمْتٍ عابِسَ الوَجْهِ مُفَكِّرًا.

سَأَلْتُهُ: «هَلْ أَذْهَبُ وَأُوقِظُ السَّيِّدةَ فِيرْفاكْس أَوْ أَحَدَ الخَدَمِ؟»

قالَ: «لا! ماذا بِوسْعِهِمْ أَنْ يَفْعَلوا؟ اِسْمَعي يا جين: سَأَتْرُكُكِ هُنا بِضْعَ دقائِقَ. عِديني أَنْ تَظَلّي هُنا حَتّى أَعودَ.»

تَرَكَني وَسَمِعْتُهُ يَصْعَدُ إلى الطّابِقِ الثّالِثِ، وَطالَ انْتِظاري حَتّى تَمَلَّكَني الخَوْفُ وَالقَلَقُ، وَأَخيرًا عادَ. كانَ شاحِبَ الوَجْهِ، يَبْدو عَلَيْهِ الإِعْياءُ، وَقالَ بِهُدوءٍ: «الآنَ أَعْرِفُ ما حَدَثَ.»

سَأَلْتُ: «ماذا؟»

فَلَمْ يُجِبْ عَنْ سُؤالي بَلْ سَأَلَني: «تِلْكَ الضِّحْكَةُ الغَريبَةُ الَّتي سَمِعْتِها اللَّيْلَةَ، هَلْ سَمِعْتِها مِنْ قَبْلُ؟»

أَجَبْتُ: «نَعَمْ يا سَيِّدي سَمِعْتُها عِنْدَما كانَتْ جريس بُول، المَرْأَةُ الَّتي تُساعِدُ في أَعْمالِ الحِياكَةِ، مَوْجودَةً هُنا، وَتِلْكَ هِيَ ضِحْكَتُها.»

قالَ: «نَعَمْ، كانَ الصَّوْتُ الَّذي سَمِعْتِهِ اللَّيْلَةَ هُوَ صَوْتَ جريس بُول. مِسْكينَةٌ تِلْكَ المَرْأَةُ، فَهِيَ تَتَعَرَّضُ لِنَوْباتِ جُنونٍ، وَتَقومُ أَثْناءَها بِأَعْمالٍ غَريبَةٍ خَطِرَةٍ، وَقَدِ انْتابَتْها اللَّيْلَةَ إِحْدى هٰذِهِ النَّوْباتِ. لَقَدْ هَدَأَتِ الآنَ، وَلا أُريدُ أَنْ نُزْعِجَ أَحَدًا مِنَ الخَدَمِ.»

قُلْتُ: «حَسَنًا يا سَيِّدي، لَنْ أَتَفَوَّهَ بِكَلِمَةٍ عَمّا حَدَثَ. وَلٰكِنْ أَيْنَ تَنامُ بَقِيَّةَ اللَّيْلِ وَفِراشُكَ مُبْتَلٌّ؟»

قالَ: «سَأَنامُ في المَكْتَبَةِ عَلى أَحَدِ المَقاعِدِ هُناكَ، فَلَمْ يَبْقَ إِلّا القَليلُ عَلى طُلوعِ النَّهارِ.»

قُلْتُ: «حَسَنًا، طابَ مَساؤُكَ يا سَيِّدي.»

قالَ وَقَدْ بَدا عَلَيْهِ الأَسى: «جِين! لَقَدْ أَنْقَذْتِ حَياتي هذِهِ اللَّيْلَةَ، وَالآنَ تَتْرُكينَني دونَ أَنْ تَتَحَدَّثي مَعي.»

قُلْتُ: «الوَقْتُ مُتَأَخِّرٌ جِدًّا يا سَيِّدي، وَيَجِبُ أَنْ تُحاوِلَ النَّوْمَ.»

أَمْسَكَ بِيَدي قائِلًا: «مُنْذُ الوَهْلَةِ الأُولى الَّتي وَقَعَ فيها بَصَري عَلَيْكِ يا جِين، شَعَرْتُ بِأَنَّكِ سَتكونينَ عَوْنًا لي في يَوْمٍ مِنَ الأَيّامِ، وَشَعَرْتُ بِرابِطَةٍ تَرْبُطُ بَيْنَنا، رَعاكِ الله يا عَزيزَتي وَشُكْرًا.»

عُدْتُ إِلى حُجْرَتي وَلَمْ يَغْمُضْ لي جَفْنٌ، وَشَعَرْتُ بِسَعادةٍ غامِرةٍ، فَالسَّيِّدُ رُوتْشِسْتر يَحْتاجُني، وَاسْتَطَعْتُ أَنْ أُساعِدَهُ. وَقَدْ دَعاني لِأَوَّلِ مَرَّةٍ بِاسْمِيَ الأَوَّلِ جِين، وَبَدَأْتُ أَتَمَنَّى أَنْ يَجيءَ اليَوْمُ الَّذي يُحِبُّني فيهِ كَما أُحِبُّهُ.

الْفَصْلُ الرّابعَ عَشَرَ

أَخْبَرَ السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر السَّيِّدَةَ فِيرْفاكْس أَنَّ النّارَ شَبَّتْ نَتيجةَ إهْمالِهِ، لِأَنَّهُ نَسِيَ أَنْ يُطْفِئَ الشَّمْعَةَ قَبْلَ أَنْ يَنامَ.

وَدَهِشْتُ عِنْدَما رَأَيْتُ جرِيس بُوول في غُرْفَتِهِ وَقَدِ انْهَمَكَتْ في تَنْظيفِها، وَبَدَتْ سَليمةَ العَقْلِ تَمامًا. وَشَعَرْتُ بِرَغْبَةٍ قَوِيَّةٍ في رُؤْيةِ السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر، وَمَعَ ذلِكَ كُنْتُ أَهابُ مُقابَلَتَهُ. هَلْ كانَ حُلْمًا يا تُرى عِنْدَما ناداني باسْمِي الأَوَّلِ جين، وَعِنْدَما أَمْسَكَ بِيَدي وَضَغَطَ عَلَيْها؟ تَمَنَّيْت لو يَحْضُرُ إلى المَكْتَبةِ، وَلكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ.

وَفي أَثْناءِ الغَداءِ أَخْبَرَتْني السَّيِّدَةُ فِيرْفاكْس بِما ظَنَّتْ أَنَّهُ حَدَثَ. وَكُنْتُ مَشْغولَةً بِالتَّفْكيرِ في جرِيس بُوول، فَلَمْ أُصْغِ لَها بِانْتِباهٍ. وَعُدْتُ أَنا وَأَدِيل بَعْدَ انْتِهاءِ الغَداءِ إلى دُرُوسِنا، وَلَمْ أَرَ السَّيِّدَ رُوتْشِسْتر.

بَعْدَ الظُّهْرِ، تَناوَلْتُ مَعَها الشّايَ وَسَأَلَتْني: «ماذا بِكِ يا جِين؟ أَمَريضَةٌ أَنْتِ أَمْ مُتْعَبةٌ؟»

قُلْتُ: «لا هذا وَلا ذاكَ، فَأَنا لَمْ أَتَمَتَّعْ بِالصِّحَّةِ والرّاحةِ طَوالَ حَياتي كَما أَتَمَتَّعُ بِهِما الآنَ.»

قالَتْ: «حَسَنًا، تعالَيْ لِتَناوُلِ الشّاي. أَحْمَدُ الله عَلى أَنَّ الجَوَّ اليَوْمَ صَحْوٌ مُناسِبٌ لِرِحْلةِ السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر.»

صِحْتُ في دَهْشةٍ: «رِحْلةٌ؟! لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ أَنَّهُ مُقْدِمٌ عَلى سَفَرٍ.»

قالَتْ: «نَعَمْ، لَقَدْ ذَهَبَ بَعْدَ الإِفْطارِ مُباشرةً لِيَزورَ بَعْضَ أَصْدِقائِهِ، أُسْرةَ إِشْتُون، فَهُمْ يُقيمونَ في الجانِبِ الآخَرِ مِنْ مِيلْكُوت، حَيْثُ يُقيمُ كَثيرٌ مِنْ عِلْيةِ القَوْمِ.»

سَأَلْتُ: «هَلْ سَيعودُ اللَّيْلَة؟»

أَجابَتْ: «كَلّا، إِنَّهُ عَلى ما أَظُنُّ يَنْوِي أَنْ يَقْضِيَ هُناكَ أُسْبوعًا عَلى الأَقَلِّ؛ فَهُوَ شَخْصٌ مَحْبوبٌ جَذّابٌ، تَحومُ حَوْلَهُ النِّساءُ في هذِهِ المُجْتَمعاتِ.»

وَأَخَذَتْ تُحَدِّثُني عَنْ كَثيرٍ مِنْ هؤلاءِ النِّساءِ، خاصَّةً عَنْ واحِدةٍ تُدْعى بلانْش إنجْرام، قالَتْ: «يَعْتَقِدُ الجَميعُ بِأَنَّها سَتَتَزَوَّجُ السَّيِّدَ رُوتْشِسْتر.»

صُعِقْتُ عِنْدَ سَماعِ ذلِكَ الخَبَرِ، وَلَمْ أَكُنْ قادِرةً عَلى التَّحَكُّمِ في مَشاعِري، لكِنْ أَسْعَفَني الحَظُّ فَدَخَلَتْ عَلَيْنا أَدِيل، وَانْتَقَلَ بِنا الحَديثُ إِلى مَوْضُوعاتٍ أُخْرى.

عِنْدَما انْفَرَدْتُ بِنَفْسي في حُجْرَتي تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَكَّرْتُ في السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر، وَرَأَيْتُ أَنَّني كُنْتُ فَتاةً حَمْقاءَ، فَقَدْ تَصَوَّرْتُ اللَّيْلَةَ الماضِيةَ أَنَّهُ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ يُحِبَّني، وَلكِنَّني تَبَيَّنْتُ الآنَ كَمْ كُنْتُ واهِمةً، فَما أَنا إِلّا مُرَبِّيَةٌ أَتَقاضى أَجْري مِنْهُ، فَكَيْفَ يُحِبُّني؟!

حَدَّثْتُ نَفْسي آنَذاكَ: «يَجِبُ أَنْ تَخْجَلي مِنْ نَفْسِكِ أَيَّتُها الحَمْقاءُ! كَيْفَ تَجْرُئينَ عَلى التَّفْكيرِ في مِثْلِ هذا الأَمْرِ؟ فَأَنْتِ حَتّى لَسْتِ جَميلةً. وَقَدْ يَتَزَوَّجُ مِنَ الآنِسةِ بلانْش إنجْرام وَإذا تَزَوَّجَها عَلَيْكِ أَلّا تَشْعُري بِالغَيْرةِ.»

وَلِلَيْلةٍ ثانيةٍ نِمْتُ نَوْمًا مُتَقَطِّعًا. وَلكِنْ بَدَأَتْ حالَتي تَتَحَسَّنُ في الصَّباحِ. وَاعْتَزَمْتُ أَنْ أُفَكِّرَ في السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر فَقَطْ عَلى أَنَّهُ مَخْدُومي، وَأَلّا أَسْمَحَ لِنَفْسي بَعْدَ اليَوْمِ بِالأَمَلِ في أَنَّهُ سَيُحِبُّني.

الفصل الخامِسَ عشَرَ

انْقَضى أُسْبوعٌ عَلى غيابِ السَّيِّد رُوتْشِسْتر لَمْ نَسْمَعْ فيهِ عَنْهُ خَبَرًا، وَقالَتِ السَّيِّدةُ فِيرْفاكْس إنَّهُ رُبَّما يكونُ قَدْ تَوَجَّهَ رَأسًا كَعادَتِهِ مِنْ مِيلْكُوت إلى لَنْدَن.

وَحَزِنْتُ لِسَماعي هذا، فَقَدْ تَمَنَّيْتُ في نَفْسي أَنْ يَعودَ إلى ثُورنْفيلد. وَرَجَعْتُ أَقْطَعُ العَهْدَ تِلْوَ العَهْدِ بِأَنْ أَنْساهُ وَأَرْجِعَ عَنْ حُبِّي لَهُ.

انْقَضى أُسْبوعٌ آخَرُ، ثُمَّ وَصَلَتْ مِنْهُ رِسالَةٌ إلى السَّيِّدةِ فيرْفاكْس قالَتْ بَعْدَ أَنْ قَرَأَتْها: «سَيَمْتَلِئُ هذا البَيْتُ بِالزُّوّارِ قَريبًا، وَسَنَظَلُّ مَشْغولينَ لِعِدَّةِ أَسابيعَ.»

سَأَلْتُها: «لِماذا؟ هلْ سَيَعودُ السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر؟»

قالَتْ: «نَعَمْ، سَيَعودُ يَوْمَ الخَميسِ المُقْبِلِ وَمَعَهُ مَجْموعةٌ مِنْ أَصْدِقائِهِ وَسَيَشْغَلونَ كُلَّ وَقْتِنا.»

كانَتِ السَّيِّدةُ فِيرْفاكْس عَلى حَقٍّ، فَقَدْ دَبَّ النَّشاطُ في حَياتِنا، وَهَبَّ الكُلُّ يَعْمَلُ اسْتِعْدادًا لِهذِهِ الزِّيارةِ. حَتَّى أَنا، فَكُنْتُ أَقومُ بِالمُساعَدةِ في الطَّهْي بَدَلًا مِنَ القِيامِ بِالتَّدْريسِ.

حَلَّ يَوْمُ الخَميسِ وَكانَتْ أَدِيل تَنْتَظِرُ ذلِكَ اليَوْمَ بِشَوْقٍ وَلَهْفةٍ لِتُقابِلَ هذِهِ المَجْموعةَ مِنْ عِلْيةِ القَوْمِ.

وَصَلَ القَوْمُ يَتَقَدَّمُهُمْ أَرْبعةُ فُرسانٍ يَمْتَطونَ جيادَهُمْ. وَكانَ السَّيِّدُ

رُوتْشِسْتر أَحَدَ الذينَ يَرْكَبونَ في المُقَدِّمةِ، وَبِجانِبِهِ شابَّةٌ آيَةٌ في الجَمالِ وَالأَناقةِ قالَتْ عَنْها السَّيِّدةُ فِيرْفاكْس عِنْدَما رَأَتْها: «تِلْكَ هِيَ الآنِسةُ إنجْرام، لَعَمْري إِنَّها تَزْدادُ جَمالًا وَبَهاءً كُلَّما رَأَيْتُها.»

وَصَلَ باقي الزُّوّارِ في مَرْكَبَتَيْنِ، وَامْتَلأَ البَيْتُ بِالضُّيوفِ.

بَقِيتُ مَعَ أَدِيل في الطّابَقِ الثّاني. لَمْ نَرَ السَّيِّدَ رُوتْشِسْتر، وَلَمْ نُقابِلِ الزُّوّارَ، وَسَمِعْنا أَصْواتًا كَثيرةً مُخْتَلِطةً. وَبَعْدَ العَشاءِ سَمِعْنا عَزْفًا على البِيانُو وَصَوْتَيْنِ يُنْشِدانِ، كانَ أَحَدَهُما صَوْتُ السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر.

كانَ الجَوُّ صَحْوًا دافِئًا في اليَوْمِ التّالي، وَقَضى الضُّيُوفُ يَوْمَهُمْ خارِجَ البَيْتِ، وَلَمْ يَعودوا إِلّا في المَساءِ. بَعْدَ العَشاءِ أَرْسَلَ السَّيدُ رُوتْشِسْتر يَدْعوني أَنا وَأَدِيل إلى حُجْرةِ الجُلُوسِ، وَقالَتِ السَّيِّدةُ فِيرْفاكْس إِنَّهُ يَدْعوني أَنا بِصِفةٍ خاصَّةٍ. وَذَهَبْتُ مُتَوَجِّسةً مِمّا سَوْفَ أُلاقيهِ أَنا المُرَبِّيَةَ المِسْكينَةَ وَسْطَ تِلْكَ الجُموعِ مِنْ أَكابِرِ القَوْمِ؛ أَمّا أَدِيل فَكادَتْ تَطيرُ فَرَحًا.

دَخَلْنا الحُجْرةَ وَاتَّخَذْتُ لي رُكْنًا انْطَوَيْتُ فيهِ عَلى أَمَلِ أَنْ لا يَراني أَحَدٌ. وَدَخَلَتْ عَلَيْنا ثَماني سَيِّداتٍ بَيْنَهُنَّ الآنِسةُ بلانْش إِنجْرام، وَكانَتْ أَجْمَلَهُنَّ. كانَتْ مُنْتَصِبةَ القامةِ، ذاتَ شَعْرٍ أَسْوَدَ وَعَيْنَيْنِ بَرّاقَتَيْنِ. وَلَمْ تَكُنْ تَأْبَهُ بِمَنْ حَوْلَها، بَلْ كانَ كُلُّ اهْتِمامِها مُنْصَبًّا عَلى إِظْهارِ جَمالِها وَشِدَّةِ ذَكائِها.

لِحُسْنِ الحَظِّ لَمْ يُلاحِظْني أَحَدٌ مِنْهُنَّ، أَمّا أَدِيل فانْدَمَجَتْ في الحَديثِ



مَعَهُنَّ وَأُعْجِبْنَ بِها جميعًا، وَظَهَرَتْ عَلَيْها عَلاماتُ البِشْرِ وَالسَّعادةِ. أَخيرًا قُدِّمَتِ القَهْوةُ.

وَحَضَرَ الرِّجالُ، وَلَمْ يَكُنِ السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر بَيْنَهُمْ، بَلْ حَضَرَ بَعْدَهُمْ بِدقائِقَ وَجلَسَ يَتَحَدَّثُ مَعَ بَعْضِ السَّيِّداتِ.

لَمْ يَلْتَفِتْ إليَّ، وَكُنْتُ أَسْتَرِقُ النَّظَرَ إِلَيْهِ لأُقارِنَ بَيْنَ مُقابَلَتِنا اليَوْمَ وَمَقُابَلَتِنا آخِرَ مَرَّةٍ. كَمْ كانَ الفَرْقُ عَظيمًا، وَكَمْ كانَ ما شَعَرْتُ بِهِ مِنَ الأَلَمِ وَالأَسَى خاصَّةً وَقَدْ أَدْرَكْتُ أَنّي ما زِلْتُ أُحِبُّهُ وَسَأَظَلُّ أُحِبُّهُ مَهْما كانَتِ الفَوارِقُ بَيْنَنا.

كانَتِ الآنِسةُ إنجْرام حَريصةً عَلى إِرْضاءِ السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر وَتَنْفيذِ رَغَباتِهِ، وَبَدا سَعيدًا بِذلِكَ، إلّا أَنّي شَعَرْتُ بِأَنَّهُما يَلْعَبانِ لُعْبةً ما. وَشَعَرْتُ بِأَنَّ الآنِسةَ إنجْرام لَمْ تَكُنْ جادَّةً في حُبِّها، بَلْ كانَتْ تَلْهو بِعَواطِفِ السَّيِّدِ روتْشِسْتر وَتُؤَدّي دَوْرَها بِإِتْقانٍ.

قامَتْ تَعْزِفُ عَلى البِيانُو وَصاحَبَها رُوتْشِسْتر وَانْتَهَزْتُ الفُرْصةَ وَتَسَلَّلْتُ خارِجةً عِنْدَما فَرَغا مِنْ غِنائِهِما. وَصَعِدْتُ إلى غُرْفَتي، وَبَيْنَما أَنا أَصْعَدُ سَمِعْتُ وَقْعَ خُطُواتٍ خَلْفي فَالتَفَتُّ فَإِذا بِالسَّيِّدِ رُوتْشِسْتر يَتْبَعُني، وَسَأَلَني بِرِقَّةٍ: «كَيْفَ حالُكِ يا جِين؟»

قُلْتُ: «بِخَيْرٍ! أَشْكُرُكَ يا سَيِّدي.»

سَأَلَني: «لِماذا لَمْ تُكَلِّميني في حُجْرةِ الجُلوسِ؟»

أَجَبْتُ: «لانْشِغالِكَ بِأَصْدِقائِكَ.»

فَرَدَّ: «هَلْ حدثَ ما يُكَدِّرُكِ أَثْناءَ غِيابي؟ لقدْ بَدَوْتِ حَزينةً.»

قُلْتُ: «لا يا سَيِّدي، أَنا حَقًّا بِخَيْرٍ، قَدْ أكونُ مُتْعَبةً بَعْضَ الشَّيْءِ وَهذا كُلُّ ما هُناكَ.»

قالَ: «لا، لا أَظُنُّكِ تَصْدُقينَني القَوْلَ. أُريدُ أَنْ أَعْرِفَ مِنْكِ كُلَّ شَيْءٍ، وَلكِنَّنا لا نَسْتَطيعُ الحَديثَ اللَّيْلَةَ، فَلْنُرْجِئْهُ لِيَوْمٍ آخَرَ. فَقَطْ لي رَجاءٌ واحِدٌ عِنْدَكِ يا جين: تَعالَيْ كُلَّ مَساءٍ إلى حُجْرَةِ الجُلوسِ ما دامَ عِنْدَنا زائِرونَ. وَالآنَ يَجِبُ أَنْ تَذْهَبَ أَديل لِلْفِراشِ، فَابْعَثي صُوفي لِتَأْخُذَها.» ثُمَّ قالَ: «طابَ مَساؤكِ يا –» وَتَوَقَّفَ فَجْأَةً عَنِ الكَلامِ وَانْصَرَفَ.

الْفَصْلُ السّادِسَ عَشَرَ

لَمْ تَحِنْ فُرْصةٌ لِلتَّحَدُّثِ مَعَ السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر خِلال الأَيّامِ التّالِيةِ، وَكُنْتُ أَذْهَبُ كُلَّ مَساءٍ بَعْدَ العَشاءِ إلى حُجْرةِ الجُلوسِ، وَأَنْزَوي في رُكْني لا يَلْتَفِتُ إلَيَّ أَحَدٌ. وَتَعاقَبَتِ الأَيّامُ وَالأَسابيعُ وَالكُلُّ سَعيدٌ مُبْتَهِجٌ، إلّا أَنا!

خَرَجَ السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر ذاتَ يَوْمٍ لِقَضاءِ بَعْضِ الأَعْمالِ، وَحَلَّ المَساءُ دونَ أَنْ يَعُودَ، وَبَدَتْ عَلى الآنِسةِ إنجْرام عَلاماتُ القَلَقِ وَالتَّوَتُّرِ لِغِيابِهِ، وَوَقَفَتْ في النّافِذةِ تَنْتَظِرُهُ. وَفَجْأَةً وَقَفَتْ مَرْكَبةٌ بِالْبابِ وَنَزَلَ مِنْها رَجُلٌ غَريبٌ، قالَ عِنْدَما أَدْخَلَهُ الخادِمُ: «أَنا آسِفٌ أَنْ أَجِدَ صَديقيَ السَّيِّدَ رُوتْشِسْتر مُتَغَيِّبًا، وَلكِنْ أَرْجو أَنْ تَسْمَحوا لي بِانْتِظارِهِ، فَقَدْ أَتَيْتُ مِنْ سَفَرٍ طَويلٍ شاقٍّ.»

كانَ الرَّجُلُ طَويلَ القامةِ، وَسيمَ الطَّلْعةِ، مُؤَدَّبَ الحَديثِ، يُقارِبُ عُمْرُهُ عُمْرَ السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر، وَقَدْ أَخْبَرَنا أَنَّهُ يَعيشُ في جُزُرِ الهِنْدِ الغَرْبيَّةِ، حَيْثُ الْتَقى بِالسَّيِّدِ رُوتْشِسْتر مُنْذُ سَنَواتٍ طَويلةٍ. وَلَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ أَنَّ السَّيِّدَ رُوتْشِسْتر ذَهَبَ في رِحْلاتِهِ إلى خارِجِ القارَّةِ الأُورُبِّيَّةِ. كَذلِكَ أَخْبَرَنا بِأَنَّهُ يُدْعى مِيسُون، وَشَعَرْتُ نَحْوَهُ بِعَدَمِ الِارْتياحِ دونَ أَيِّ سَبَبٍ.

بَيْنَما الكُلُّ يَتَحَدَّثونَ، دَخَلَتْ إحْدى الخادِماتِ وَتَوَجَّهَتْ إلى السَّيِّدِ إشْتُون – أَحَدِ الضُّيوفِ – وَأَسَرَّتْ إلَيْهِ شَيْئًا وَسَمِعْتُهُ يَقولُ: «اِصْرِفيها

حالًا.» وقالَ آخَرُ: «لا، لا يا إشْتُون! دَعْنا كَي نَلْهو وَنَتَسَلَّى. اِسْمَعوا جَميعًا! بِالْبابِ عَرّافةٌ، فَهَلْ تُريدونَ أَنْ تَدْخُلَ وَتَقْرَأَ لَكُمْ طالِعَكُمْ؟»
قالُوا بِصوْتٍ واحِدٍ: «نَعَمْ، نَعَمْ! جَميعُنا مُتَشَوِّقونَ لِمَعْرِفةِ ما تُخَبِّئُهُ لَنا الأَقْدارُ.»

قالَتِ الخادِمةُ: «إنَّها تَقْرَأُ طالِعَ الشّابّاتِ غَيْرِ المُتَزَوِّجات فَقَطْ، وَتَشْتَرِطُ أَنْ تَراهُنَّ كُلًّا عَلى حِدةٍ في حُجْرةِ المَكْتَبةِ.»

كانَتْ بلانْش إنجْرام أَوَّلَ مَنْ تَقَدَّمَ حَتَّى تَبْدو أَشْجَعَ المَوْجوداتِ وَأَكْثَرَهُنَّ إقْدامًا. وَعادَتْ بَعْدَ خَمْسَ عَشْرةَ دَقيقةً، وَبِخِلافِ عادَتِها وَحُبِّها لِلظُّهورِ عادَتْ صامِتةً، وَلَمْ تَرُدَّ عَلى ما انْهالَ عَلَيْها مِنَ الأَسْئِلةِ بِخُصوصِ ما دارَ بَيْنَها وَبيْنَ العَرّافةِ.

ذَهَبَتِ الآنِساتُ الثَّلاثُ الأُخْرياتُ مَعًا، فَقَدْ كُنَّ خائِفاتٍ. وَلَمْ تَطُلْ إقامَتُهُنَّ مَعَ العَرّافةِ، وَعُدْنَ يَضْحَكْنَ. وَقالَتْ إحداهُنَّ: «إنَّها حَقًّا مُدْهِشةٌ، لَقَدْ أَخْبَرَتْنا بِكُلِّ شَيْءٍ عَنْ حَياتِنا وَعائِلاتِنا، وَعَمَّنْ نُحِبُّ وَمَنْ نَكْرَهُ، بِالِاخْتِصارِ عَرَفَتْ كُلَّ شَيْءٍ.»

وَبَيْنَما هُنَّ يَتَحَدَّثْنَ، جاءَتْ إلَيَّ الخادِمةُ وَقالَتْ: «مِنْ فَضْلِكِ يا آنِسةُ إير، تَقولُ العَرّافةُ إنَّها تُريدُ مُقابلةَ الآنِسةِ الباقيةِ في الحُجْرةِ وَأَظُنُّها تَعْنيكِ، فَهَلّا أَتَيْتِ مَعي؟»

كُنْتُ مُتَشَوِّقةً لِمُقابَلةِ هذِهِ المَرْأةِ العَجيبةِ، وَقُمْتُ لِلتَّوِّ.

الْفَصْلُ السّابِعَ عَشَرَ

عِنْدَما دَخَلْتُ حُجْرَةَ المَكْتَبَةِ وَجَدْتُها ساكِنَةً مُظْلِمَةً لا يُنيرُها سِوى الضَّوْءِ المُنْبَعِثِ مِنَ المِدْفَأَةِ. وَكانَتِ العَرّافَةُ العَجوزُ تَجْلِسُ بِالْقُرْبِ مِنَ المِدْفَأَةِ، تَرْتَدي مِعْطَفًا أَحْمَرَ، وَتَضَعُ فَوْقَ رَأْسِها قُبَّعَةً كَبيرةً حَجَبَتْ مَلامِحَ وَجْهِها.

تَطَلَّعَتْ إِلَيَّ قائِلَةً: «تُريدينَ أَنْ أَقْرَأَ طالِعَكِ، أَلَيْسَ كَذلِكَ؟»

قُلْتُ: «أَكونُ شاكِرَةً لَوْ تَكَرَّمْتِ بِذلِكَ.»

سَأَلَتْ: «أَلا تَخافينَ؟»

أَجَبْتُ: «كَلّا، لَيْسَ هُناكَ ما يَدْعو لِلْخَوْفِ.»

فَضَحِكَتْ ضِحْكَةً هادِئَةً وَقالَتْ: «أَنْتِ مُتَحَجِّرَةُ العَواطِفِ. مَريضَةٌ وَعَنيدَةٌ.»

سَأَلْتُ: «ماذا تَعْنينَ بِقَوْلِكِ هذا؟»

أَجابَتْ: «أَنْتِ تَشْعُرينَ بِالوَحْدَةِ، وَمَعَ ذلِكَ تَمْنَعينَ نَفْسَكِ عَنِ الِاسْتِرْسالِ في أَنْبَلِ العَواطِفِ وَأَسْماها، لِذلِكَ أَنْتِ مَريضَةٌ، وَسُلوكُكِ هذا هُوَ الغَباءُ بِعَيْنِهِ.»

قُلْتُ: «وَلكِنَّ هذا وَصْفٌ يُمْكِنُ أَنْ يُقالَ عَنْ كَثيرٍ مِنَ النِّساءِ، خاصَّةً العامِلاتِ مِنْهُنَّ، وَاللّاتي يَتَطَلَّبُ عَمَلُهُنَّ الحَياةَ وَسْطَ أُسْرَةٍ كَبيرةٍ

بَعيدًا عَنْ أُسَرِهِنَّ وَبُيوتِهِنَّ.»

قالَتْ: «لا! يَنْدُرُ وُجودُ مَثيلاتِكِ، فَالسَّعادةُ قَريبةٌ مِنْكِ جِدًّا، وَلكِنَّكِ تُعْرِضينَ بِوَجْهِكِ عَنْها، وَلا تَمُدِّينَ يَدَكِ إِلَيْها.»

قُلْتُ: «أَرْجوكِ أَنْ تُوَضِّحي. إِلَيْكِ بِكَفِّي لِتُطالِعي لي مُسْتَقْبَلي. أَلَيْسَ هذا عادَةً ما تَفْعَلونَ؟»

قالَتْ: «نَعَمْ، وَلكِنِّي أُفَضِّلُ أَنْ أُطالِعَ وَجْهَكِ. اِقْتَرِبي مِنِّي حَتَّى أَرى وَجْهَكِ جَلِيًّا عَلى ضَوْءِ المِدْفَأَةِ.» وَاقْتَرَبْتُ مِنْها.

قالَتْ: «تُرى فيمَ تُفَكِّرينَ وَأَنْتِ جالِسَةٌ وَسْطَ هؤُلاءِ القَوْمِ؟ هَلْ تَشْعُرينَ بِالتَّعاسَةِ، أَمْ تَأْمُلينَ أَنْ تُصْبِحي يَوْمًا مِثْلَهُمْ؟»

أَجَبْتُ: «لَسْتُ تَعيسَةً، وَلَيْسَ لي أَمَلٌ إِلّا أَنْ أُصْبِحَ يَوْمًا ما صاحِبَةَ مَدْرَسَةٍ خاصَّةٍ بي.»

قالَتْ: «لا يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ هَذا هُوَ أَمَلَكِ الوَحيدَ. أَخْبِريني، عِنْدَما تَكونينَ في حُجْرَةِ الجُلوسِ مَعَ هَؤُلاءِ الأَشْخاصِ، هَلْ تُوَجِّهينَ كُلَّ اهْتِمامِكِ إِلى مُراقَبَةِ سُلوكِ وَتَحَرُّكاتِ شَخْصَيْنِ مُحَدَّدَيْنِ؟»

أَجَبْتُ: «لا، لا أَظُنُّ. فَأَنا أَنْظُرُ إِلى الجَميعِ.»

قالَتْ: «وَلكِنَّ هُناكَ شَخْصَيْنِ يُراقِبُهُما الجَميعُ حالِيًّا، أَلَيْسَ كَذلِكَ؟»

قُلْتُ: «هذا صَحيحٌ.»

سَأَلَتْ: «وَما رَأْيُكِ أَنْتِ في هذَيْنِ الشَّخْصَيْنِ؟ هَلْ هُناكَ حُبٌّ مُتَبادَلٌ بَيْنَهُما؟»

كانَتْ تَنْظُرُ في عَيْنَيَّ وَهِيَ تَسْأَلُني كَمَنْ يُريدُ قِراءةَ أَفْكارِي. فَصَمَتُّ بُرْهَةً، وَعِنْدَما كَرَّرَتِ السُّؤالَ أَجَبْتُ: «كَلّا، لا أَعْتَقِدُ أَنَّهُما يَتَبادَلانِ الحُبَّ.»

قالَتْ: «وَمَعَ ذلِكَ سَيَتَزَوَّجُ هذانِ الشَّخْصانِ، أَلَيْسَ كَذلِكَ؟»

قُلْتُ: «بَلَى، الجَميعُ يَقولونَ إِنَّ السَّيِّدَ رُوتْشِسْتر سَيَتَزَوَّجُ الآنِسَةَ إِنجْرام. وَلكِنِّي لَمْ أَحْضُرْ هُنا لِتَقْرَأي لي طالِعَهُما.»

قالَتْ: «إِنَّني لا أَرَى مُسْتَقْبَلَكِ أَمامي واضِحًا. اِقْتَرِبي مِنّي أَكْثَرَ.»



قالَتْ بَعْدَ أَنِ اقْتَرَبْتُ: «العَيْنانِ بَرّاقَتانِ وَتَجيشانِ بِالمَشاعِرِ، الفَمُ جادٌّ وَلٰكِنَّهُ قادِرٌ عَلى الابْتسامِ. إِنَّهُ وَجْهُ شَخْصٍ قَوِيٍّ شُجاعٍ يَتْبَعُ الحَقَّ وَلَوْ ضِدَّ نَفْسِهِ، يُمْكِنُهُ أَنْ يُخْفِيَ عَواطِفَهُ عِنْدَ اللُّزومِ.»

وَاسْتَمَرَّتْ تَتَحَدَّثُ عَلى هٰذا النَّحْوِ إِلى أَنْ صَرَخَتْ قائِلَةً: «انْهَضي يا جِينْ لَقَدِ انْتَهَتْ لُعْبَتي.»

وَتَغَيَّرَتْ نَبَراتُ صَوْتِها، وَعَرَفْتُ الصَّوْتَ وَتَخَيَّلْتُ أَنّي أَحْلُمُ. وَلٰكِنَّ العَرّافَةَ خَلَعَتْ مِعْطَفَها وَقُبَّعَتَها وَرَأَيْتُ أَمامِيَ السَّيِّدَ رُوتْشِسْتر!

أَظْهَرْتُ دَهْشَتي قائِلَةً: «ما أَغْرَبَها لُعْبَةً يا سَيِّدي! لِماذا فَعَلْتَ ذٰلِكَ؟»

قالَ: «هَلْ أَجَدْتُ اللُّعْبَةَ؟ وَهَلْ قُمْتُ بِدَوْرِ العَرّافَةِ بِإِتْقانٍ؟»



قُلْتُ: «نَعَمْ لَقَدْ أَتْقَنْتَهُ حَقَّ الإِتْقانِ، وَتَعْتَقِدُ باقي الآنِساتِ بِأَنَّكَ حَقًّا عَرّافَةٌ وَعَرّافَةٌ ماهِرَةٌ. وَلكِنَّني لا أَفْهَمُ، لِماذا لَعِبْتَ دَوْرَكَ هذا مَعي؟ ما الَّذي أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَهُ؟ لَقَدْ بُحْتُ بِأَسْرارٍ لَمْ أَكُنْ أُريدُ أَنْ تَعْرِفَها؟» وَتَوَقَّفْتُ عَنِ الكَلامِ، تُرى هَلِ اكْتَشَفَ سِرَّ حُبِّي لَهُ؟

قالَ: «لَمْ تَقولي لي شَيْئًا جَديدًا لَمْ أَعْرِفْهُ مِنْ قَبْلُ يا جِين. أَرْجوكِ أَلّا تَغْضَبي مِنّي، وَتَعالَيْ حَدِّثيني عَمّا يَجْري في حُجْرَةِ الجُلوسِ أَثْناءَ غِيابي.»

قُلْتُ: «أَظُنُّهُمْ يَتَحَدَّثونَ عَنْكَ.» وَضَحِكْتُ، ثُمَّ تَذَكَّرْتُ الزّائِرَ الغريبَ السَّيِّدَ مِيْسُون، فَسَأَلْتُ السَّيِّدَ رُوتْشِسْتر: «هَلْ عَلِمْتَ بِحُضورِ زائِرٍ غَريبٍ جَديدٍ؟»

سَأَلَ: «مَنْ يَكونُ؟»

أَجَبْتُ: «إِنَّ اسْمَهُ مِيْسُون، وَقَدْ أَتى مِنْ جُزُرِ الهِنْدِ الغَرْبِيَّةِ؟»

زالَتِ الاِبْتِسامَةُ عَنْ وَجْهِ السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر، وَأَمْسَكَ بِيَدي بِقُوَّةٍ وَزَفَرَ قائِلًا: «مِيْسُون! جُزُرُ الهِنْدِ الغَرْبِيَّةِ! آهٍ كَلّا، كَلّا!»

سَأَلْتُهُ: «هَلْ أَنْتَ مَريضٌ يا سَيِّدي؟» فَقَدْ شَحَبَ وَجْهُهُ.

أَجابَ: «جِين! آهٍ يا جِين! لَيْتَنا كُنّا وَحْدَنا، أَنا وَأَنْتِ فَوْقَ جَزيرَةٍ قاصِيَةٍ بَعيدًا عَنِ المَتاعِبِ وَالأَخْطارِ. يا إِلهي، ماذا أَفْعَلُ الآنَ؟.»

قُلْتُ مُحاوِلَةً تَخْفيفَ اضْطِرابِهِ: «هَلْ يُمْكِنُني أَنْ أُساعِدَكَ؟ إِنَّني

لَنْ أَتَأَخَّرَ عَنْ بَذْلِ حَياتي في سَبيلِ إِسْعادِكَ.»

قالَ: «لا يا عَزيزَتي، لا يُمْكِنُكِ عَمَلُ أَيِّ شَيْءٍ وَلكِنَّني أَعِدُكِ بِأَنَّني سَأَلْجَأُ إِلَيْكِ إِذا ما احْتَجْتُ إِلى مُساعَدَتِكِ. أَمّا الآنَ فَاذْهَبي، وَأَخْبِري السَّيِّدَ مِيسُون بِأَنّي أُريدُ أَنْ أَراهُ وَأَحْضِريهِ إِلَيَّ هُنا، مِنْ فَضْلِكِ.»

قُلْتُ: «سَمْعًا وَطاعَةً.»

وَقَبْلَ أَنْ أَنْصَرِفَ قالَ: «جِين، لَوْ أَجْمَعَ الكُلُّ عَلى كُرْهي وَعَدائي، وَرَفَضوا الحَديثَ مَعي، فَهَلْ تَكْرَهينَني أَنْتِ أَيْضًا وَلا تُحَدِّثينَني؟»

عَجِبْتُ لِهذا السُّؤالِ الغَريبِ وَقُلْتُ: «أَنْتَ تَعْلَمُ أَنّي لَنْ أَكْرَهَكَ أَبَدًا، بَلْ..» وَكِدْتُ أَبوحُ لَهُ بِحُبّي وَلكِنّي أَسْرَعْتُ وَخَرَجْتُ، وَبَلَّغْتُ الرِّسالَةَ لِلسَّيِّدِ مِيسُون، ثُمَّ صَحِبْتُهُ إِلى حُجْرَةِ المَكْتَبَةِ، وَتَرَكْتُهُ وَصَعِدْتُ إِلى حُجْرَتي لِأَنامَ، وَأَحْلُمَ.

لَمْ أَنَمْ، بَلْ بَقيتُ في فِراشي بِضْعَ ساعاتٍ إِلى أَنْ سَمِعْتُ وَقْعَ أَقْدامِهِما وَهُما يَصْعَدانِ وَصَوْتَ السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر يَقولُ: «هذِهِ هِيَ غُرْفَتُكَ يا مِيسُون، أَتَمَنّى لَكَ نَوْمًا هَنيئًا هادِئًا.»

كانَ صَوْتُهُ يَنِمُّ عَنِ الرّاحةِ وَالطُّمَأْنينةِ، وَشَعَرْتُ أَنَّ هُمومَهُ زالَتْ. وَحَمِدْتُ اللهَ عَلى ذَلِكَ، وَاسْتَسْلَمْتُ لِلنَّوْمِ.

الْفَصْلُ الثّامِنَ عَشَرَ

اِنْتابَني الأَرَقُ، وَفَجْأَةً سَمِعْتُ صَرْخَةً مُرَوِّعَةً تَرَدَّدَ صَداها في جَميعِ أَنْحاءِ ثُورنْفيلد، ثُمَّ تَبِعَتْها صَرْخَةٌ ثانِيَةٌ وَصَوْتٌ أَتى مِنَ الطّابَقِ الثّالِثِ يُنادي بِلَهْفَةٍ وَذُعْرٍ: «النَّجْدَةَ! النَّجْدَةَ! أَنْقِذْني. يا رُوتْشِسْتر.» وَسَمِعْتُ بَعْدَ ذٰلِكَ صَريرَ بابٍ يُفْتَحُ، وَوَقْعَ أَقْدامٍ تُهَرْوِلُ. وَأَسْرَعْتُ بِارْتِداءِ مَلابِسي وَخَرَجْتُ مُسْرِعَةً. فَوَجَدْتُ الجَميعَ قَدِ اسْتَيْقَظوا، وَكانَ بَعْضُهُمْ يَجْري هُنا وَهُناكَ، وَالبَعْضُ يَبْكي، وَالبَعْضُ يَتَساءَلُ عَمّا حَدَثَ: «هَلْ شَبَّ حَريقٌ؟ هَلْ أُصيبَ أَحَدٌ بِمَكْروهٍ؟ أَيْنَ نَذْهَبُ؟ أَيْنَ السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر؟»



هُنا ظَهَرَ السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر وَسْطَهُمْ مُهَدِّئًا. قالَ: «لا تَنْزَعِجوا يا أَصْدِقائي! فَلَيْسَ هُناكَ ما يَدْعو إلى الخَوْفِ. كُلُّ ما في الأَمْرِ أَنَّ إِحْدى الخادِماتِ رَأَتْ كابوسًا مُزْعِجًا. تَخَيَّلَتْ أَنَّها رَأَتْ شَبَحًا، فَصَرَخَتْ مَذْعورةً. أَرْجو أَنْ تَعودُوا إلى فِراشِكُمْ مُطْمَئِنِّينَ، وَأَنا آسِفٌ لِهذا الإِزْعاجِ.»

اِنْصَرَفَ الجَميعُ، وَذَهَبَ كُلٌّ إلى غُرْفَتِهِ، وَلَمْ أَنَمْ وَانْتَظَرْتُ لِأَرى ما إذا كانَ السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر في حاجةٍ إلى مُساعَدَتي، أَمْ لا. وَبَعْدَ مُضِيِّ نَحْوِ نِصْفِ ساعةٍ، سَمِعْتُ طَرْقًا خَفيفًا عَلى بابي، وَصَوْتَ السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر يَسْأَلُ: «أَمُسْتَيْقِظَةٌ أَنْتِ يا جِين؟»



أَجَبْتُ: «نَعَمْ يا سَيِّدي، هَلْ أَنْتَ في حاجةٍ إليَّ؟»

قالَ: «نَعَمْ، هَلُمِّي مَعي. لا تُحْدِثي أَيَّ صَوْتٍ، وَأَحْضِري مَعَكِ قَليلًا مِنَ الماءِ وَأَرْبِطةً.»

أَخَذْتُ الماءَ وَالأَرْبِطةَ وَتَبِعْتُهُ إلى الطّابَقِ الثّالِثِ.

قالَ: «آمُلُ أَنْ لا تكوني يا جِين مِمَّنْ يَفْزَعونَ عِنْدَ رُؤْيةِ الدَّمِ، فَسَوْفَ تُشاهِدينَ مَنْظَرًا فَظيعًا.» وَأَمْسَكَ بِيَدي، وَاقْتادَني إلى داخِلِ الغُرْفةِ.

رَأَيْتُ السَّيِّدَ مِيسُون مُمَدَّدًا عَلى الفِراشِ، عَيْناهُ مُغْمَضَتانِ وَلَوْنُهُ شاحِبٌ شُحوبَ المَوْتِ، عَلى حِينَ غَطَّتِ الدِّماءُ إحْدَى ذِراعَيْهِ.

قالَ السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر: «أَمْسِكي لِيَ الشَّمْعةَ يا جِين.» ثُمَّ بَدَأَ يُنَظِّفُ ذِراعَ مِيسُون وَوَجْهَهُ. وَفَتَحَ الرَّجُلُ المِسْكينُ عَيْنَيْهِ وَسَأَلَ في حَسْرةٍ: «هَلْ سَأَموتُ؟»

أَجابَ السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر: «لا، لا يا مِيسُون. إنَّ إصابَتَكَ لَيْسَتْ خَطيرةً. سَأَذْهَبُ لِاسْتِدْعاءِ الطَّبيبِ.» ثُمَّ نَظَرَ إليَّ قائِلًا: «سَأَتْرُكُكِ هُنا بُرْهةً يا جِين مَعَ هذا الرَّجُلِ؛ لا تُحَدِّثيهِ. وَأَنْتَ أَيْضًا يا مِيسون، الْزَمِ الصَّمْتَ وَالهُدوءَ.» ثُمَّ تَرَكَنا وَانْصَرَفَ.

تَمَلَّكَني الخَوْفُ وَالقَلَقُ، ووَجَدْتُ صُعوبةً كَبيرةً في أَنْ أَبْقى حَيْثُ أَنا، فَقَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ صَوْتَ جريس بُوول الغَريبَ في الحُجْرةِ المُجاوِرةِ، وَكُنْتُ أَتَوَقَّعُ أَنْ تَدْخُلَ عَلَيْنا في أَيَّةِ لَحْظةٍ. وَرُحْتُ أُفَكِّرُ فيما حَدَثَ تِلْكَ اللَّيْلةَ، وَبَدَتِ الحَياةُ في ثُورنْفيلد لُغْزًا مُعَقَّدًا. وَلَمْ أَجِدْ سَبَبًا يَمْنَعُنا مِنَ

الحَديثِ أَنا وَالسَّيِّدَ مِيْسُون، وَلكِنِّي بَقِيتُ صامِتةً، وَأَطَعْتُ أَمْرَ السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر.

أَخيرًا، طَلَعَ النَّهارُ، وَسَمِعْتُ نُباحَ الكَلْبِ بَيْلُوت يَأْتي مِنْ بَعيدٍ، ثُمَّ حَضَرَ السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر وَبِرِفْقَتِهِ طَبيبُ القَرْيةِ.

قالَ رُوتْشِسْتر: «أَسْرِعْ يا دُكْتور؛ أَظُنُّ أَنَّ حالةَ المَريضِ تَسْمَحُ بِنَقْلِهِ مِنْ هُنا، أَلَيْسَ كَذلِكَ.»

قالَ الطَّبيبُ: «بَلَى، فَالإِصابةُ غَيْرُ خَطيرةٍ، وَسَيَلْتَئِمُ الجُرْحُ بِسُرْعةٍ إِنْ شاءَ الله.»

قالَ مِيْسُون: «لَقَدْ كادَتْ أَنْ تَقْضيَ عَلَيَّ.»

وَرَدَّ عَلَيْهِ الطَّبيبُ قائِلًا: «هَوِّنْ عَلَيْكَ يا أَخي، إِنَّ كُلَّ ما تَشْعُرُ بِهِ مِنْ ضَعْفٍ نَتَجَ عَنْ كَمِّيَّةِ الدَّمِ الَّتي نَزَفْتَها.»

قالَ مِيْسُون: «لَقَدْ قَضَمَتْ ذِراعي كَما لَوْ كانَتْ وَحْشًا كاسِرًا، وَشَرِبَتْ مِنْ دَمي. يا إِلهي، كَمْ كانَ مَنْظَرُها مُرَوِّعًا! لَقَدْ خَدَعَنِي في أَوَّلِ الأَمْرِ هُدوؤُها.»

قالَ رُوتْشِسْتر: «لَقَدْ حَذَّرْتُكَ، وَأَخْبَرْتُكَ عَنْ مَدى خُطورَتِها، وَلكِنَّكَ لَمْ تُصَدِّقْني.»

قالَ مِيْسُون: «ظَنَنْتُ أَنَّ في مَقْدوري مُساعَدَتَكَ.»

رَدَّ رُوتْشِسْتر: «ظَنَنْتَ؟! ما أَغْباكَ. بِرَبِّكَ يا دُكْتور، أَسْرِعْ قَبْلَ

أَنْ يَسْتَيْقِظَ الخَدَمُ. وَأَنْتِ يا جين، أَرْجوكِ أَنْ تَهْبِطي السُّلَّمَ قَبْلَنا، وإذا قابَلْتِ أَحَدًا، أَشْغِلي لِتُنْذِرينا.»

وَعِنْدَما بَلَغَتِ السّاعةُ الخامِسةَ وَخَمْسًا وَأَرْبَعينَ دَقيقةً، كانَ الطَّبيبُ وَالجَريحُ قَدْ رَحَلا. وَكانَ آخِرُ ما قالَهُ مِيْسُون لِلسَّيِّدِ رُوتْشِسْتر: «حافِظْ عَلَيْها، وَكُنْ رَحيمًا بِها.» تُرى، مَنْ كانَ يَعْني؟ وَأُضيفَ لُغْزٌ جَديدٌ إلى أَلْغازِ تِلْكَ اللَّيْلةِ وَحَوادِثِها الَّتي حَيَّرَتْني.

بَعْدَ انْصِرافِ المَريضِ وَالطَّبيبِ، قالَ السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر: «كَمْ أَتَمَنّى أَنْ تكونَ هذِهِ هِيَ النِّهايةَ. تَعالَيْ يا جِين إلى الحَديقةِ، فَأَنا لا أَحْتَمِلُ البَقاءَ هُنا.»

خَرَجْنا إلى الحَديقةِ، وَجَلَسْنا تَحْتَ إحْدى الأَشْجارِ، وَبَدَأَتِ الشَّمْسُ تُشْرِقُ، وَخَيَّمَ عَلى الحَديقةِ جَوٌّ ساحِرٌ جَميلٌ.

قالَ رُوتْشِسْتر: «أَنا آسِفٌ إنْ كُنْتُ سَبَّبْتُ لَكِ كُلَّ هذا الإزْعاجِ، فَلَقَدْ كانَتِ اللَّيْلةُ حافِلةً بِالْحَوادِثِ المُثيرةِ. هَلْ خِفْتِ يا جِين عِنْدَما تَرَكْتُكِ وَحْدَكِ مَعَ السَّيِّدِ مِيْسُون؟»

قُلْتُ: «نَعَمْ، لِأَنّي كُنْتُ أَسْمَعُ أَصْواتًا غَريبةً تَصْدُرُ مِنَ الحُجْرةِ المُجاوِرةِ. جرِيس بُوول كانَتْ في تِلْكَ الحُجْرةِ، أَلَيْسَ كَذلِكَ؟»

قالَ: «بَلى يا جين، وَلكِنّي كُنْتُ قَدْ أَوْصَدْتُ عَلَيْها البابَ بِالْمِفْتاحِ، وَلَمْ تكوني مُعَرَّضةً لأَيِّ خَطَرٍ.»

سَأَلْتُ: «وَهَلْ زالَتِ الآنَ عَنْكَ كُلُّ المَتاعِبِ وَالأَخْطارِ؟»

أَجابَ: «كَلّا، لَنْ تَزولَ حَتّى يَرْحَلَ مِيْسُون عَنْ إنْجِلْترا.»

قُلْتُ: «هَلْ وُجودُهُ هُنا هُوَ مَبْعَثُ الخَطَرِ؟»

قالَ: «لا يُمْكِنُني الرَّدُّ على سُؤالِكِ هذا الآنَ يا جِين، وَلكِنْ سَأَرْوي لَكِ قِصَّةً وَقَعَتْ أَحْداثُها مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ. بَطَلُ القِصَّةِ شابٌّ في مُقْتَبَلِ العُمْرِ رَحَلَ إلى بلادٍ نائيةٍ. وَبَيْنَما هُوَ في تِلْكَ البِلادِ، ارْتَكَبَ خَطَأً جَسيمًا. وَلازَمَتْهُ عَواقِبُ ذلِكَ الخَطَأِ طيلةَ حَياتِهِ. نَدِمَ عَلى ما فَعَلَ، وَلكِنْ حَيْثُ لا يَنْفَعُ النَّدَمُ. جابَ أَقْطارَ العالَمِ كُلِّهِ، وَقامَ بِمُخْتَلِفِ الأَعْمالِ وَالمُحاوَلاتِ حَتَّى يَنْسى، وَلكِنْ دونَ جَدْوى. أَخيرًا عادَ إلى بَيْتِهِ وَقَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ اليَأْسُ وَالقُنُوطُ. وَلَمْ يَعُدْ يَرى مَعْنًى لِلْحَياةِ، وَلكِنَّهُ قابَلَ شَخْصًا بَعَثَ فيهِ الأَمَلَ مِنْ جَديدٍ، وَهَيَّأَ لَهُ صُورةَ حَياةٍ هانِئَةٍ. وَأَصْبَحَ لا يَتَذَكَّرُ الماضِيَ إلّا نادِرًا، وَفَجْأَةً حَدَثَ ما لَمْ يَكُنْ في الحُسْبانِ، ووَجَدَ هذا الإِنْسانُ أَنَّ واجِبَهُ يُحَتِّمُ عَلَيْهِ تَرْكَ هذا الطَّريقِ الجَديدِ. وَلكِنَّهُ عاجِزٌ، وَيُريدُ أَنْ يَحْيا بِالرَّغْمِ مِمَّا مَضى، فَما رَأْيُكِ يا جِين؟»

أَدْرَكْتُ - بِالطَّبْعِ - أَنَّ الشّابَّ كانَ السَّيِّدَ رُوتْشِسْتر نَفْسَهُ، وَأَنَّ الصَّديقَ هُوَ أَنا وَلكِنْ، تُرى ما هُوَ الخَطَأُ الَّذي عَكَّرَ عَلَيْهِ صَفْوَ حَياتِهِ في الماضي، وَلا يَزالُ تَأْثيرُهُ يَمْتَدُّ إلى الحاضِرِ؟ لَمْ أَعْلَمْ، وَلَمْ أَتَكَلَّمْ، بَلْ جَلَسْنا صامِتَيْنِ بِضْعَ دَقائِقَ. ثُمَّ نَهَضَ وَراحَ يَسيرُ جيئَةً وَذَهابًا، وَعادَ يَقولُ:

«هَيّا يا جِين، لِنَعُدْ لِلْمَنْزِلِ حالًا، فَأَنْتِ شاحِبَةُ اللَّوْنِ مُرْهَقَةٌ. وَلكِنْ قَبْلَ ذَهابِكِ أُريدُ مِنْكِ وَعْدًا بِأَلّا تُفْضي بِما حَدَثَ في اللَّيْلَةِ الماضيةِ لِأَيِّ إِنْسانٍ.»

قُلْتُ بِهُدوءٍ: «أَعِدُكَ بِذلِكَ.» وَتَرَكْتُهُ وَانْصَرَفْتُ.

الْفَصْلُ التّاسِعَ عشَرَ

وَصَلَتْني رِسالةٌ مِنَ ابْنَةِ خالَتي إلِيزا في اليَوْمِ التّالي، تَسْتَدْعيني إلى غِيتْسهيد هُول، لِأَنَّ خالَتي كانَتْ مَريضةً، وَطَلَبَتْ أَنْ تَراني قَبْلَ أَنْ تَموتَ. وَقَبِلْتُ الذَّهابَ مُرْغَمةً، وَذَهَبْتُ إلى السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر لِأَسْتَأْذِنَهُ، وَكانَ جالِسًا مَعَ ضُيوفِهِ يَلْعَبُ الوَرَقَ. وَلَمْ أَكُنْ أَرْغَبُ في رُؤْيَتِهِ بَعْدَ الحَديثِ الَّذي دارَ بَيْنَنا في الحَديقةِ. وَقَدْ بَدَتْ عَلَيْهِ الدَّهْشةُ عِنْدَما عَلِمَ أَنَّ لي خالةً.

سَأَلَني: كَمْ يَوْمًا تَنْوينَ أَنْ تَتَغَيَّبي؟»

أَجَبْتُ: «أُسْبوعًا وَرُبَّما أُسْبوعَيْنِ، وَذلِكَ حَسْبَ ما تَسْتَدْعيهِ الظُّروفُ.»

قالَ: «حاولي أَنْ لا تَتَغَيَّبي أَكْثَرَ مِنْ أُسْبوعٍ واحِدٍ.» ووَعَدْتُهُ أَنْ أَعودَ في أَوَّلِ فُرْصةٍ مُمْكِنةٍ.

تَرَكْتُ ثُورنْفيلد هُول مُبَكِّرةً، ووَصَلْتُ غِيتْسهيد بَعْدَ ظُهْرِ اليَوْمِ نَفْسِهِ، نَحْوَ السّاعةِ الخامِسةِ.

سُرَّتْ بسِي بِلِقائي، أَمّا إلِيزا وَجُورْجِيانا، فَقابَلَتاني بِكُلِّ فُتورٍ وَعَدَمِ مُبالاةٍ. وَكانَتِ السَّنواتُ التِّسعُ الماضيةُ قَدْ غَيَّرَتْهُما كَثيرًا. أَصْبَحَتْ إلِيزا شابَّةً نَحيلةً طَويلةً تَبْدو عَلَيْها عَلاماتُ الجِدِّ وَالصَّرامةِ، أَمّا جُورْجِيانا، فَكانَتْ حَسَنَةَ الطَّلْعةِ، مُمْتَلِئةَ الجِسْمِ، تَبْدو مُتَذَمِّرةً في مُعْظَمِ الأَوْقاتِ.

حَدَّثَتاني عَنْ مَرَضِ والِدَتِهِما، وَكَيْفَ كانَتْ تَغيبُ عَنْ وَعْيِها كَثيرًا، وَلا تَعْرِفُ مَنْ حَوْلَها، وَلا تَقْدِرُ عَلى الكَلامِ. كَذٰلِكَ أَخْبَرَتاني بِوَفاةِ أَخيهِما جُون في لَنْدَن مُنْذُ بِضْعَةِ أَشْهُرٍ، وَقَدْ قالَ بَعْضُهُمْ إِنَّهُ ماتَ مُنْتَحِرًا. وَقَدْ بَدَأَ مَرَضُ الأُمِّ مُنْذُ سَماعِها خَبَرَ وَفاةِ ابْنِها الأَثيرِ لَدَيْها.

في المَساءِ زُرْتُ السَّيِّدَةَ رِيد في حُجْرَتِها، وَلٰكِنَّها لَمْ تَعْرِفْني وَلَمْ تُحَدِّثْني طَوالَ الأَيّامِ العَشْرَةِ التّالِيَةِ. وَكُنْتُ أَتَرَدَّدُ عَلَيْها، وَأَجْلِسُ بِجانِبِها ساعاتٍ يَوْمِيًّا. فَجْأَةً، وَفي اليَوْمِ الحادِيَ عَشَرَ الْتَفَتَتْ إِلَيَّ قائِلَةً: «أَهٰذِهِ أَنْتِ يا جِين؟»

قُلْتُ: «نَعَمْ.»

قالَتْ: «أَرَدْتُ أَنْ أَراكِ مُنْذُ زَمَنٍ طَويلٍ. لَقَدْ أَخْطَأْتُ في حَقِّكِ، وَأَرَدْتُ أَنْ أُوَضِّحَ لَكِ السَّبَبَ. اِذْهَبي إِلى مَكْتَبي، وَأَحْضِري لِيَ الرِّسالَةَ القَديمَةَ الَّتي سَتَجِدينَها.» وَلَمّا فَعَلْتُ قالَتْ: «اِقْرَأيها.»

جاءَ في الرِّسالَةِ: «عَزيزَتي السَّيِّدَةَ رِيد، أَرْجوكِ أَنْ تُرْسِلي عُنْوانَ ابْنَةِ أَخي جِين إير. أَنا مُقيمٌ في ماديرا، وَقَدْ أَدْرَكَتْني الشَّيْخوخَةُ، وَلَيْسَ لي أَوْلادٌ، وَأَعيشُ وَحْدي. أُريدُ أَنْ تَكونَ جِين مَعي ابْنَةً لي، أَتْرُكُ لَها كُلَّ ما أَمْلِكُ بَعْدَ وَفاتي.»

المُخْلِصُ

جُون إير

كانَتِ الرِّسالةُ مَكْتوبةً بِتاريخٍ قَديمٍ، مَرَّتْ عَلَيْهِ ثَلاثُ سَنَواتٍ، فَسَأَلْتُها غاضِبةً: «لِماذا لَمْ تُخْبِريني بِأَمْرِ هٰذِهِ الرِّسالةِ قَبْلَ الآنَ؟»



أَجابَتْ: «لأَنَّني أَكْرَهُكِ، وَلَنْ أَغْفِرَ لَكِ ما اقْتَرَفْتِهِ مِنْ ذُنوبٍ أَثْناءَ وُجُودِكِ هُنا. لَمْ أُرِدْ أَنْ تَعيشِي سَعيدةً مَعَ عَمِّكِ، بَيْنَما كانَ أَوْلادي يُعانونَ هُنا البُؤْسَ وَالفَقْرَ.» تَوَقَّفَتْ عَنِ الكَلامِ وَبَدَأَتْ تَسْعُلُ بِعُنْفٍ طالِبةً ماءً.

قُلْتُ وَأَنا أُعْطيها الماءَ: «سَيِّدةُ رِيد، أَنا آسِفةٌ حَقًّا على ما قُلْتُ، وَلكِنِّي كُنْتُ طِفْلةً فَأَرْجو أَنْ تَنْسي الماضيَ، وَتَصْفَحي عَنِّي.»

لَمْ تكُنْ تُنْصِتُ لي، وَواصَلَتْ كَلامَها قائِلةً: «كَتَبْتُ لِعَمِّكِ وَأَخْبَرْتُهُ أَنَّكِ تُوُفِّيتِ أَثْناءَ وَباءِ التَّيْفوسِ الَّذي تَفَشَّى في لُووُد. كُنْتُ أَكْرَهُكِ. وَما زِلْتُ أَكْرَهُكِ.»

قُلْتُ: «أَتَوَسَّلُ إِلَيْكِ أَنْ تَنْسي الماضيَ، وَدَعينا نَتَصافَحُ وَنكونُ أَصْدِقاءَ. هَيّا قَبِّليني!»

هَمَمْتُ بِتَقْبيلِها فَأَشاحَتْ بِوَجْهِها عَنِّي، دونَ أَنْ تَقولَ شَيْئًا، فَانْصَرَفْتُ.

حَضَرَتْ بِسي إلى حُجْرَتي في تِلْكَ اللَّيْلةِ وَقالَتْ: «لَقَدْ ماتَتِ السَّيِّدةُ رِيد.»

نَهَضْتُ مِنْ فِراشي وَذَهَبْتُ إلى حُجْرَتِها، فَوَجَدْتُ إِليزا وجُورْجِيانا هُناكَ. وَوَقَفْنا نَحْنُ الثَّلاثةَ – حَوْلَ الفِراشِ – نَنْظُرُ إلى الجُثْمانِ المُسَجَّى عَلَيْهِ، دُونَ بُكاءٍ.

الْفَصْلُ العِشْرونَ

كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ إقامَتي في غِيتْسهيد لَنْ تطولَ كَثيرًا، وَلكِن انْقَضى شَهْرٌ قَبْلَ أَنْ أَتَمَكَّنَ مِنَ الرَّحيل. شَعَرْتُ بِحاجَةِ إِليزا وَجُورْجِيانا إلى وُجُودي بَعْدَ وَفاةِ والِدَتِهِما، فَمَكَثْتُ مَعَهُما إلى أَنْ ذَهَبَتْ جُورْجِيانا لِتَعيشَ في لَنْدَن، وَرَحَلَتْ إِليزا إلى فَرَنْسا. وَلَمْ أَحْظَ مِنْهُما بِكَلِمَةِ شُكْرٍ على مُساعَدَتي لَهُما.

عُدْتُ إلى ثُورنْفيلد هُول، وَأَنا أَشْعُرُ بِأَنَّي عائِدَةٌ إلى بَيْتي. كُنْتُ سَعيدَةً بِالرَّغْمِ مِنْ أَنِّي كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ ثُورنْفيلد لَنْ تَظَلَّ بَيْتًا لي مُدَّةً طَويلَةً. وَعِنْدَما تَرَكْتُ ثُورنْفيلد، كانَ الكُلُّ يَتَحَدَّثُ عَنْ قُرْبِ زَواجِ السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر بِالآنِسةِ إنجْرام. وَأَثْناءَ وجودي في غِيتْسهيد، وَصَلَتْني رِسالَةٌ مِنَ السَّيِّدَةِ فِيرْفاكْس تُؤَكِّدُ الشَّيْءَ نَفْسَهُ.

كُنْتُ أَتَمَنَّى أَنْ لا يَكونَ الخَبَرُ صَحيحًا، وَلكِنِّي تَذَكَّرْتُ كُلَّ مُحاوَلاتِ الآنِسةِ إنجْرام لاجْتِذابِ السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر وَالتَّحَكُّمِ في عَواطِفِهِ. تَذَكَّرْتُ حَديثَهُ لي في الحَديقَةِ، تُرى ماذا كانَ يَعْني؟ وَما الغَرَضُ الَّذي كانَ يَسْعى إِلَيْهِ؟ بَدا لي أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مُعَقَّدٌ غامِضٌ إلّا شَيْئًا واحِدًا، وَهُوَ وُجوبُ رَحيلي أَنا وَأَديل عَنْ ثُورنْفيلد هُول إذا ما تَمَّ هذا الزَّواجُ.

حَمَلَتْني المَرْكَبَةُ إلى مِيلْكُوت، وَمِنْها ذَهَبْتُ إلى ثُورنْفيلد سَيْرًا عَلى الأَقْدام. كانَ الجَوُّ في ذلِكَ المَساءِ جَميلًا، فَحاوَلْتُ أَنْ أَتَمَتَّعَ بِهِ، وَلكِنَّ أَفْكارِيَ الكَئيبَةَ لَمْ تُفارِقْني، وَكانَتْ تَدورُ كُلُّها حَوْلَ السَّيِّدِ

رُوتْشِسْتر وَالآنِسةِ إنجْرام.

كانَتِ السَّيِّدَةُ فِيرْفاكْس قَدْ أَخْبَرَتْني في خِطابِها أَنَّ السَّيِّدَ رُوتْشِسْتر قَدْ تَرَكَ ثُورنْفيلد وَذَهَبَ مَعَ بَعْضِ أَصْدِقائِهِ إلى لَنْدَن لِقَضاءِ بِضْعةِ أَسابيعَ. وَلِذلِكَ دَهِشْتُ عِنْدَما الْتَقَيْتُ بِهِ في طَريقي إلى ثُورنْفيلد، وَكانَ جالِسًا عِنْدَ بَوّابةٍ. وَلَمْ أُرِدْ أَنْ أُقابِلَهُ في تِلْكَ اللَّحْظةِ، لِذلِكَ اسْتَدَرْتُ عائِدةً، وَلكِنَّهُ بادَرَني بِقَوْلِهِ: «أَهْلًا يا جين! لِماذا تَغَيَّبْتِ هذِهِ المُدَّةَ الطَّويلةَ؟»

قُلْتُ: «لَقَدْ ماتَتْ خالَتي، وَاضْطُرِرْتُ لِلْبَقاءِ مَعَ ابْنَتَيْها حَتَّى الآنَ.»

سَأَلَني: «لِماذا بَدَتْ عَلَيْكِ الدَّهْشةُ حينَ رَأَيْتِني؟»

قُلْتُ: «لِأَنّي سَمِعْتُ مِنَ السَّيِّدةِ فِيرْفاكْس أَنَّكَ ذَهَبْتَ إلى لَنْدَن.»

سَأَلَني: «هَلْ أَخْبَرَتْكِ السَّيِّدةُ فِيرْفاكْس عَنْ سَبَبِ ذَهابي لِلَنْدَن؟»

أَجَبْتُ: «نَعَمْ، فَالْكُلُّ يَعْرِفُ السَّبَبَ.» وَقَصَدْتُ بِذلكَ أَنَّهُ ذَهَبَ لِيَشْتَرِيَ ما يَحْتاجُهُ اسْتِعْدادًا لِحَفْلِ زِفافِهِ. أَمّا هُوَ فَقالَ:

«لَقَدِ اشْتَرَيتُ مَرْكَبةً جَديدةً، وَأَرْغَبُ في أَنْ أَعْرِفَ رَأْيَكِ فيها، وَعَمّا إذا كُنْتِ تَعْتَقِدينَ بِأَنَّها سَتَحوزُ إعْجابَ السَّيِّدة رُوتْشِسْتر الجَديدةِ أَمْ لا.» وَابْتَسَمَ ابْتِسامةً خاصَّةً، كُنْتُ كَثيرًا ما أَراها عَلى وَجْهِهِ في المُدَّةِ الأَخيرةِ.

وَلكِنْ، مَنْ تكونُ السَّيِّدةُ رُوتْشِسْتر الجَديدةُ؟ هَلْ هِيَ الآنِسةُ إنجْرام، أَمِ امْرَأَةٌ أُخرى؟ ولِماذا يُريدُ أَنْ يَعْرِفَ رَأْيي؟

قُلْتُ: «سَأَقولُ لَكَ رَأْيِيَ إذا رَغِبْتَ.»

أَسْرَعْتُ إلى البَيْتِ وَأَنا في حَيْرةٍ، وَقابَلَتْني السَّيِّدةُ فِيرْفاكْس وَأَدِيل بِحَفاوةٍ وَتَرْحيبٍ بَعَثا السُّرورَ في نَفْسي. وَشَعَرْتُ بِأَنِّي عُدْتُ إلى بَيْتي، وَكَمْ تَمَنَّيْتُ أَلّا يَتِمَّ زَواجُ السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر بِالْآنِسةِ إنجْرام.

الْفَصْلُ الحادي وَالعِشْرونَ

لَمْ أَرَ أَيَّ اسْتِعْداداتٍ لِحَفْلِ الزَّواجِ المُنْتَظَرِ خِلالَ الأَسابيعِ الَّتي مَضَتْ بَعْدَ عوْدَتي. وَاسْتَقَرَّ السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر بَيْنَنا، وَكانَ دائِمًا يُعامِلُني بِعَطْفٍ وَمَوَدَّةٍ. وَكُنْتُ أَنا وَأَدِيل نَذْهَبُ إلى حُجْرَةِ الجُلوسِ كُلَّ مَساءٍ، وَبَيْنَما كانَتْ أَدِيل تَلْعَبُ مَعَ الكَلْبِ بَيْلُوت، كُنْتُ وَالسَّيِّدُ رُوتْشِسْتر نَتَجاذَبُ أَطْرافَ الحَديثِ. وَازْدادَ حُبِّي لَهُ حَتَّى مَلأَ قَلْبي وَوِجْداني.

ذاتَ مَساءٍ، في أَواسِطِ شَهْرِ يُونْيه، خَرَجْتُ إلى الحَديقَةِ وَحْدي، حَيْثُ كانَتْ أَدِيل مُتْعَبَةً وَذَهَبَتْ مُبَكِّرَةً إلى الفِراشِ. وَكانَ جَوُّ المَساءِ بارِدًا مُنْعِشًا، بَعْدَ حَرارَةِ النَّهارِ. وَبَيْنَما أَنا أَسيرُ، رَأَيْتُ السَّيِّدَ رُوتْشِسْتر مُقْبِلًا نَحْوي.

قالَ: «تَعالَي انْظُري إلى هذِهِ الوَرْدَةِ. ما أَبْدَعَها! لَمْ أَرَ لَها مَثيلًا هُنا في إنْجِلْترا قَبْلَ اليَوْمِ.»

كانَتْ وَرْدَةً جَميلَةً حَقًّا، وَأَبْدَيْتُ إعْجابي بِها، وَكُنْتُ عَلى وَشْكِ أَنْ أَنْصَرِفَ عِنْدَما قالَ:

«أَرْجوكِ يا جِين! ابْقَي مَعي قَليلًا، لِنَنْعَمَ بِهذا الجَوِّ الرّائِعِ.» ثُمَّ راحَ يَتَحَدَّثُ عَنْ ثُورنْفيلد هُول - بَيْتِهِ - ثُمَّ سَأَلَني: «هَلْ يُؤْلِمُكِ أَنْ تَتْرُكي هذا المَكانَ يا جِين؟»

أَجَبْتُ: «وَلِماذا أَتْرُكُ ثُورنْفيلد يا سَيِّدي؟»

قالَ: «آسِفٌ يا جِين، وَلكِنِّي أَجِدُ ذلِكَ ضَروريًّا.»

سَأَلْتهُ: «هَلْ عَزَمْتَ إذًا على الزَّواجِ؟»

أَجابَ: «نَعَمْ، فَقَدِ اسْتَقَرَّ رَأْيي أَخيرًا. تَعالَيْ نَجْلِسْ تَحْتَ هذِهِ الشَّجَرةِ لِبِضْعِ دَقائِقَ.»

جَلَسْتُ صامِتةً حَزينةً أُفَكِّرُ، وَسَأَلَني: «هَلْ حَقًّا سَتَحْزَنينَ لِتَرْكِ هذا المَكانِ؟» قُلْتُ وَالدَّمْعُ يَكادُ يَفِرُّ مِنْ عَيْنَيَّ: «إِنَّني أُحِبُّ هذا المَكانَ، لَقَدْ قَضَيْتُ هُنا أَسْعَدَ أَيّام حَياتي، وَعِشْتُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ أَيّامًا هَنيئةً مُجَرَّدةً مِنَ الخَوْفِ، وَها أنا الآنَ أَجِدُ أَنَّ عَلَيَّ أَنْ أَرْحَلَ.»

سَأَلَ: «لِماذا عَلَيْكِ أَنْ تَرْحَلي.»

قُلْتُ: «أَنْتَ نَفْسُكَ قُلْتَ ذلِكَ، مِنْ لَحْظةٍ يا سَيِّدي. لا شَكَّ لِأَنَّكَ سَتَتَزَوَّجُ الآنِسةَ إنجْرام.»

صَرَخَ قائِلًا: «لا، لا يا جِين. أَنا لَنْ أَتَزَوَّجَ الآنِسَةَ إنجْرام، بَلْ سَأَتَزَوَّجُكِ أَنْتِ. وَبَعْدَ الزَّواجِ، نَتْرُكُ ثُورنْفيلد مَعًا.» وَأَخَذَني بَيْنَ ذِراعَيْهِ وَأَرادَ أَنْ يُقَبِّلَني، فَدَفَعْتُهُ عَنِّي قائِلةً: «أَرْجوكَ، هذا غَيْرُ لائِقٍ.»

قالَ: «اِسْمَعي يا جِين، أَنا أُقَدِّمُ لَكِ قَلْبي وَحُبِّي وَحَياتي كُلَّها. فَهَلْ تَقْبَلينَني زَوْجًا؟»

نَظَرْتُ إِلَيْهِ وَلَمْ أَقْدِرْ عَلى الكَلامِ مِنْ شِدَّةِ ذُهولي وَفَرَحي.

قالَ: «أَنْتِ تَعْلَمينَ حَقَّ العِلْمِ بِأَنّي لَمْ أُحِبَّ الآنِسَةَ إنجْرام، وَلَمْ تُحِبَّني. وَها قَدْ مَرَّ عَلَيْنا شَهْرٌ لَمْ يُوَجِّهْ أَحَدُنا كَلِمةً واحِدةً لِلآخَرِ. لَقَدِ اكْتَشَفَتْ أَخيرًا أَنَّني لَسْتُ غَنيًّا كَما كانَتْ تَتَخَيَّلُ، وَلِذلِكَ كَفَّتْ عَنْ

مُلاحَقَتي. أَنْتِ يا جِين الشَّخْصُ الوَحيدُ الَّذي أَحْبَبْتُهُ، فَأَرْجوكِ أَنْ لا تُعْرِضي عَنِّي.»

قُلْتُ: «إذا كُنْتَ حَقًّا تُحِبُّني، يُسْعِدُني أَنْ أَكونَ زَوْجَتَكَ يا إِدْوارد.» وَنَطَقْتُ بِاسْمِهِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ.

قالَ: «ما أَسْعَدَني يا جِين، لَقَدْ أَحْبَبْتُكِ مُنْذُ اللَّحْظَةِ الأُولى الَّتي وَقَعَ فيها بَصَري عَلَيْكِ، وَلكِنِّي لَمْ أَعْرِفْ شُعورَكِ نَحْوي. أَمّا الآنَ فَأَنا واثِقٌ أَنَّكِ تُبادِلينَني الحُبَّ.» ثُمَّ أَخَذَني بَيْنَ ذِراعَيْهِ قائِلًا: «سامِحْني يا إِلهي: لَقَدْ عَثَرْتُ عَلَيْها، وَسَأَحْتَفِظُ بِها وَلَنْ يُفَرِّقَنا إِنْسانٌ.»

قُلْتُ: «لَنْ يُفَرِّقَنا أَحَدٌ يا إِدْوارد، إِنَّني حُرَّةُ التَّصَرُّفِ، وَلَيْسَ لي أُسْرَةٌ تَتَدَخَّلُ في شُؤُوني.»

قالَ: «نَعَمْ.» وَلا أَظُنُّهُ كانَ مُصْغِيًا، فَقَدِ اسْتَمَرَّ يَقولُ: «نَعَمْ وَجَدْتُها، وَهِيَ وَحيدَةٌ في هذا العالَمِ. وَسَأَرْعاها ما حَيِيْتُ، وَسَوْفَ أَقْتُلُ أَيَّ شَخْصٍ يَعْتَرِضُ طَريقي.»

في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، حَجَبَتِ السُّحُبُ وَجْهَ القَمَرِ، وَهَبَّتْ رِياحٌ شَديدَةٌ مُنْذِرَةً بِاقْتِرابِ عاصِفَةٍ. هَرْوَلْنا مُسْرِعَيْنِ إِلى الدّارِ، وَلكِنَّ الأَمْطارَ هَطَلَتْ عَلَيْنا، وَبَلَّلَتْنا قَبْلَ أَنْ نَدْخُلَ. كُنّا نَضْحَكُ وَنَجْري كَالأَطْفالِ، وَعِنْدَ بابِ غُرْفَتي قالَ لي إِدْوارد: «أَسْرِعي واخْلَعي مَلابِسَكِ المُبَلَّلَةَ هذِهِ. طابَ مَساؤُكِ يا حَبيبَتي جِين.»

الْفَصْلُ الثّاني وَالعِشْرونَ

نِمْتُ تِلْكَ اللَّيْلةَ نَوْمًا عَميقًا هانِئًا، بِالرَّغْمِ مِنَ العاصِفةِ الَّتي اسْتَمَرَّتْ طَوالَ اللَّيْلِ. وَعَلِمْتُ مِنْ أَديل في الصَّباحِ أَنَّ العاصِفةَ قَدْ أَسْقَطَتْ إِحْدى أَشْجارِ الحَديقةِ، وَكانَتْ هذِهِ الشَّجَرةُ هِيَ نَفْسَها الَّتي جَلَسْتُ تَحْتَها مَعَ السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر.

ذَهِلَتِ السَّيِّدةُ فِيرْفاكْس عِنْدَما سَمِعَتْ بِخَبَرِ زَواجِيَ الوَشيكِ، وَحَذَّرَتْني قائِلَةً: «أَنا لَمْ أَسْمَعْ مِنْ قَبْلُ عَنْ سَيِّدٍ يَقْتَرِنُ بِمُرَبِّيَةٍ تَعْمَلُ عِنْدَهُ، خاصَّةً إِذا كانَ بَيْنَهما هذا الفَرْقُ في السِّنِّ.» وَكانَ السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر يَكْبُرُني بِنَحْوِ عِشْرينَ عامًا. وَتَضايَقْتُ مِمّا قالَتْهُ السَّيِّدةُ فِيرْفاكْس، وَلكِنِّي كَتَمْتُ غَيْظِيَ، وَلَمْ أَعُدْ أَهْتَمُّ بِأَحَدٍ أَوْ بِشَيْءٍ. كانَ كُلُّ ما يَهُمُّني هُوَ ثِقَتي بِأَنَّنا مُتَحابّانِ أَنا وَالسَّيِّدُ رُوتْشِسْتر. أَمّا أَديل فَقَدْ سُرَّتْ بِالْخَبَرِ.

حَدَّدْنا مَوْعِدَ الزَّواجِ، عَلى أَنْ يَتِمَّ بَعْدَ شَهْرٍ، وَانْقَضى الشَّهْرُ بِسُرْعةٍ. وَكَتَبْتُ إِلى عَمِّي جُون المُقيمِ في ماديرا وَأَخْبَرْتُهُ عَنْ عَزْمي عَلى الزَّواجِ مِنَ السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر، حَتَّى يُرْسِلَ لي بَعْضَ المالِ لِأَصْرِفَهُ عَلى حاجاتِيَ الخاصَّةِ. وَلَمْ أَتَلَقَّ مِنْهُ رَدًّا.

وَفي اليَوْمِ السّابِقِ لِيَوْمِ الزِّفافِ، اضْطُرَّ السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر إِلى أَنْ يَذْهَبَ لِقَضاءِ عَمَلٍ لا يَحْتَمِلُ التَّأْجيلَ في إِحْدى مَزارِعِهِ الَّتي تَبْعُدُ نَحْوَ عِشْرينَ مِيلًا. وَأَثْناءَ غِيابِهِ أَعْدَدْتُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى حَقائِبَ السَّفَرِ، إِذْ كُنّا

عازِمَيْنِ عَلى الرَّحيلِ مُباشَرةً بَعْدَ عَقْدِ القِرانِ لِقَضاءِ شَهْرِ العَسَلِ في أُورُوبّا.

وفي المَساءِ جَلَسْتُ أَنْتَظِرُ عَوْدةَ السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر، وَكُنْتُ قَلِقةً وَمُتَوَتِّرةَ الأَعْصابِ، فَخَرَجْتُ إلى الحَديقةِ لِأُرَوِّحَ عَنْ نَفْسي. كانَ هُناكَ ما يُقْلِقُ راحَتي، وَيَشْغَلُ باليَ، وَأَرَدْتُ أَنْ أُحَدِّثَ السَّيِّدَ رُوتْشِسْتر عَنْهُ بِنَفْسي.

أَقْبَلَ الظَّلامُ وَلَمْ يَحْضُرْ، وَأَخَذَتِ الهَواجِسُ تَجيشُ في صَدْري. وَسِرْتُ بَعْضَ الطَّريقِ عَسى أَنْ أُقابِلَهُ، وَرَأَيْتُ الشَّجَرة الَّتي أَسْقَطَتْها العَواصِفُ مُجَرَّدةً مِنَ الحَياةِ، مُلْقاةً عَلى الأَرْضِ، وَرَأَيْتُ فيها نَذيرَ شُؤْمٍ.

وَأَخيرًا رَأَيْتُهُ مُقْبِلًا عَلى ظَهْرِ جَوادِهِ، وَبَيْلُوت يَعْدو بِجانِبِهِ. وَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ وَعِنْدَما رَآني قالَ وَهُوَ يَضْحَكُ: «ما هذا؟ أَلا يُمْكِنُكِ العَيْشُ بِدوني يَوْمًا واحِدًا؟ الآنَ عَرَفْتُ أَنَّكِ تُحِبّينَني يا جين.» وَرَكِبْتُ الحِصانَ أَمامَهُ، وَعُدْنا مَعًا إلى ثُورنْفيلد. وَسَأَلَني وَنَحْنُ في الطَّريقِ: «هَل حدَثَ شَيْءٌ في ثُورنْفيلد أَثْناءَ غيابي؟»

أَجَبْتُ: «لا شَيْءَ ذا أَهَمِّيَّةٍ، وَسَأُخْبِرُكَ بَعْدَ أَنْ نَصِلَ إلى الدّارِ.»

وَعِنْدَما جَلَسْنا لِنَتَناوَلَ العَشاءَ أَخْبَرْتُهُ بِما كانَ يُقْلِقُني. قُلْتُ: «أَمْس كانَ يَوْمًا مَشْحونًا بِالْأَعْمالِ بِالنِّسْبةِ لي، وَقَبْلَ أَنْ أَذْهَبَ

لِلْفِراشِ، أَرَتْني صُوفي الطَّرْحةَ وَثَوْبَ الزِّفافِ الأَبْيَضَ الَّذي أَعَدَّتْهُ لي. الطَرْحةُ الَّتي أَتَيْتَني بِها مِنْ لَنْدَن يا إِدْوارد، إِنَّها جَميلةٌ جِدًّا، وَلكِنْ لِلْأَسَفِ لا يُمْكِنُني أَنْ أَسْتَعْمِلَها.»

قالَ: «أَنا لا أَفْهَمُ، لِماذا لا يُمْكِنُكِ أَنْ تَسْتَعْمِليها؟ لَقَدْ سَبَقَ وَمَنَعْتِني مِنْ أَنْ أَشْتَرِيَ حُلِيًّا أَوْ جَواهِرَ، وَلكِنِ الطَّرْحةُ: ما سَبَبُ إِعْراضِكِ عَنْها؟»

قُلْتُ: «اِنْتَظِرْ حَتَّى تَسْمَعَ بَقِيَّةَ حَديثي. لَقَدْ ذَهَبْتُ إِلى فِراشي مُبَكِّرَةً لِأَنِّي كُنْتُ مُتْعَبةً، وَلكِنِّي لَمْ أَنَمْ نَوْمًا مُريحًا. وَحَلَمْتُ أَحْلامًا مُزْعِجةً، وَاسْتَيْقَظْتُ في مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ عَلى نورٍ في الحُجْرةِ. وَظَنَنْتُ أَوَّلًا أَنَّهُ ضَوْءُ الفَجْرِ، وَلكِنِّي سَمِعْتُ ضَجيجًا في الغُرْفةِ وَرَأَيْتُ خَيالَ امْرَأَةٍ واقِفةٍ ظَنَنْتُها صُوفي، وَلكِنَّها لَمْ تَكُنْ صُوفي، وَلَمْ تَكُنِ السَّيِّدة فِيرْفاكْس، وَلا إِحْدى الخادِماتِ، وَلا حَتَّى جريس بُوول.»

سَأَلَ: «مَنْ كانَتْ إِذًا؟»

قُلْتُ: «لا أَعْلَمُ. كانَتِ امْرَأَةً طَويلةَ القامةِ، عَريضةَ الكَتِفَيْنِ، ذاتَ شَعْرٍ أَسْودَ، وَتَرْتَدي ثَوْبًا أَبْيَضَ.»

قالَ: «هَلْ رَأَيْتِ وَجْهَها؟»

قُلْتُ: «كَلّا، لِأَنَّها ذَهَبَتْ إِلى حَيْثُ كانَتِ الطَّرْحةُ وَفُسْتانُ الزِّفافِ مُعَلَّقَيْنِ، وَأَمْسَكَتِ الطَّرْحةَ وَمَزَّقَتْها وَأَلْقَتْ بِها عَلى الأَرْضِ، ثُمَّ أَخَذَتِ الشَّمْعةَ وَخَرَجَتْ. وَعِنْدَما أَفَقْتُ في وَقْتٍ تالٍ كانَ النَّهارُ قَدْ بَزَغَ.»

قالَ السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر بِهُدوءٍ: «لا شَكَّ أَنَّكِ كُنْتِ تَحْلُمينَ يا جِين. اِنْسَيْ ما رَأَيْتِ وَاهْدَئي، فَقَدْ كُنْتِ أَمْس مُتَوَتِّرَةَ الأَعْصابِ.»

قُلْتُ: «لا يا إدْوارد، ما رَأَيْتُ لَمْ يَكُنْ حُلْمًا بَلْ حَقيقةً. لَقَدْ تَأَكَّدْتُ مِنْ ذلِكَ عِنْدَما اسْتَيْقَظْتُ، وَوَجَدْتُ الطَّرْحةَ مُمَزَّقةً وَمُلْقاةً على الأَرْضِ.»

صاحَ قائِلًا: «أَحْمَدُ اللهَ عَلى سَلامَتِكِ يا حَبيبَتي، فَقَدْ كُنْتِ أَقْرَبَ إلى الخَطَرِ مِمّا تَظُنِّينَ.»

قُلْتُ: «أَرْجوكَ أَنْ تُصارِحَني يا إدْوارد، مَنْ كانَتْ تِلْكَ المَرْأَةُ؟»

قالَ: «دَعينا مِنْ هذا كُلِّهِ الآنَ يا جِين، رُبَّما كانَتْ جريس بُوول، وَقَدْ شاهَدْتِ بَعْضَ ما تَقومُ بِهِ مِنَ الأَعْمالِ الجُنونيَّةِ. إنَّها خَطِرةٌ في بَعْضِ الأَوْقاتِ. قَدْ تَتَعَجَّبينَ مِنْ إيوائي لَها في داري، وَلكِنِّي لَنْ أَقولَ شَيْئًا الآنَ، وَأَعِدُكِ بِأَنِّي سَأُطْلِعُكِ على كُلِّ أَسْراري، بَعْدَ أَنْ يَمُرَّ عامٌ عَلى زَواجِنا. وَالآنَ، لِنَنْسَ ما حَدَثَ وَلْنُفَكِّرْ في الغَدِ. غَدًا سَيُصْبِحُ بَيْنَنا رِباطٌ لا يَنْفَصِمُ، وَالآنَ طابَ مَساؤكِ يا جِين.»

نِمْتُ نَوْمًا مُتَقَطِّعًا، وَرَغْمًا عَنِّي كُنْتُ أُفَكِّرُ في كُلِّ ما يَحوطُني وَيَحْدُثُ حَوْلي مِنْ أَلْغازٍ.

الْفَصْلُ الثّالِثُ وَالعِشْرونَ

في اليَوْمِ التّالي، حَضَرَتْ صُوفي في السّاعةِ السّابِعةِ مَساءً لِتُساعِدَني على ارْتِداءِ مَلابِسي. وَكُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ السَّيِّدَ رُوتْشِسْتر في انْتِظارِي، وَأَسْرَعْتُ بِقَدْرِ اسْتِطاعَتي. وَقَبْلَ أَنْ أَهْبِطَ مِنْ غُرْفَتي لَمَحْتُ مِنَ النّافِذةِ رجُلَيْنِ كانا يَقِفانِ بِبابِ المَنْزِلِ، وَقَدْ أَثارا في داخِلي الخَوْفَ دونَ أَنْ أَدْرِيَ سَبَبًا لِذَلِكَ. وَنَزَلْتُ مِنْ غُرْفَتي حَيْثُ كانَ رُوتْشِسْتر في اسْتِقْبالي. وَقَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ مَراسِمُ الزَّواجِ، رَأَيْتُ أَحَدَ الرَّجُلَيْنِ يَتَسَلَّلُ إلى الدّاخِلِ وَيقولُ مُعْتَرِضًا: «إنَّ هذا القِرانَ باطِلٌ.»

حاوَلَ المَوْجودونَ مَنْعَهُ، وَلكِنَّهُ اسْتَمَرَّ يَقولُ: «قُلْتُ إنَّ هذا القِرانَ باطِلٌ لِأَنَّ السَّيِّدَ رُوتْشِسْتر مُتَزَوِّجٌ. زَوْجَتُهُ ما زالَتْ عَلى قَيْدِ الحَياةِ، وَقانونُ هذا البَلَدِ يَنُصُّ عَلى بُطْلانِ الزَّواجِ في مِثْلِ هذِهِ الحالِ.»

اِنْقَبَضَ قَلْبي، وَنَظَرْتُ إلى السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر، فَقَرَأْتُ في عَيْنَيْهِ قَسْوةً وَصَرامةً لَمْ أَعْهَدْهُما بِهِ مِنْ قَبْلُ. إلّا أَنَّهُ صَمَتَ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، بَلْ شَدَّ عَلى يَدي وَبَعْدَ بُرْهةٍ قالَ لِلرَّجُلِ: «مَنْ تَكونُ أَنْتَ؟»

رَدَّ الرَّجُلُ: «اسْمي بريجْز.»

قالَ رُوتْشِسْتر: «بَرْهِنْ عَلى ما تَقولُهُ.»

قالَ الرَّجُلُ: «مَعي هُنا مُسْتَنَدٌ يَقولُ إنَّ إدْوارد رُوتْشِسْتر تَزَوَّجَ بِرْتا مِيْسُون في جامَيْكا في يَوْمِ ٢٠ أُكْتوبَر سنة ١٨–، وَقَدْ سَلَّمَني هذا

المُسْتَنَدَ شَقيقُ زَوْجَتِكَ بِصِفَتي مُحاميًا لَهُ وَوَكيلًا عَنْهُ.»

قالَ رُوتْشِسْتر: «وَلكِنَّ هذا لا يُثْبِتُ أَنَّ زَوْجَتي ما زالَتْ عَلى قَيْدِ الحَياةِ. لَقَدْ مَضى خَمْسَةَ عَشَرَ عامًا عَلى تاريخِ هذا المُسْتَنَدِ.»

قالَ بريجز مُناديًا عَلى الرَّجُلِ الثّاني: «تَعالَ يا سَيِّدُ مِيسُون. أَلَمْ تَرَ شَقيقَتَكَ مُنْذُ ثَلاثَةِ أَشْهُرٍ فَقَطْ في مَنْزِلِ السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر؟»

تَقَدَّمَ السَّيِّدُ مِيسُون. إِنَّهُ هُوَ الرَّجُلُ الَّذي رَأَيْتُهُ مُنْذُ ثَلاثَةِ أَشْهُرٍ في تِلْكَ الغُرْفَةِ الرَّهيبَةِ. وَكانَ مُمْتَقِعَ (شاحِبَ) الوَجْهِ صامِتًا. تَنَهَّدَ وَقالَ: «نَعَمْ لَقَدْ رَأَيْتُ شَقيقَتي – زَوْجَةَ السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر – هُنا مُنْذُ ثَلاثَةِ أَشْهُرٍ فَقَطْ.»

قالَ أَحَدُ الحاضِرينَ مُتَعَجِّبًا: «تَقولُ هُنا! هذا مُسْتَحيلٌ لَقَدْ مَضى عَلَيَّ في هذِهِ القَرْيَةِ سَنواتٌ عَديدَةٌ، لَمْ أَسْمَعْ فيها قَطُّ عَنْ وُجودِ زَوْجَةٍ لِلسَّيِّدِ رُوتْشِسْتر.»

قالَ رُوتْشِسْتر: «طَبْعًا يا سَيِّدي، لأَنّي لَمْ أُعْلِنْ لِلْمَلأ عَنْ وُجودِ زَوْجَتي المَجْنونَةِ، وَقَدْ سَمِعْتَ بِلا شَكٍّ عَنْ وُجودِ امْرَأَةٍ مَجْنونَةٍ في ثُورنْفيلد. تِلْكَ هِيَ زَوْجَتي. تَعالَوْا مَعي جَميعًا لِتَروا بِأَنْفُسِكُمْ ما حاوَلْتُ أَنْ أَهْرُبَ مِنْهُ.» وَبِهذِهِ الكَلِماتِ تَرَكَ مَكانَهُ وَاتَّجَهَ ناحِيَةَ السُّلَّمِ وَصَعِدَهُ.

تَبِعْناهُ إِلى الطّابَقِ الثّالِثِ، فَدَفَعَ بابَ الحُجْرَةِ الَّتي رَأَيْتُ فيها مِيسُون جَريحًا ثُمَّ فَتَحَ بابًا آخَرَ داخِلَها، وَقادَنا إِلى غُرْفَةٍ مُظْلِمَةٍ خالِيَةٍ مِنَ النَّوافِذِ. وَرَأَيْتُ جرِيس بُوول جالِسَةً فيها بِالْقُرْبِ مِنَ المَوْقِدِ تَطْهو بَعْضَ الطَّعامِ.

قالَ رُوتْشِسْتر: «صباحَ الخَيْرِ يا سَيِّدةُ بُوول، كَيْفَ حالُ زَوْجَتي اليَوْمَ؟»
قالَتْ: «لا بَأْسَ، فَهِيَ اليَوْمَ عَلى شَيْءٍ مِنَ الغَضَبِ لكِنَّها لَيْسَتْ خَطِرةً.
ثُمَّ، وَسْطَ الظَّلامِ، رَأَيتُ المَرْأَةَ الَّتي زارَتْ حُجْرَتي في مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ.
بَدَتْ كَوَحْشٍ كاسِرٍ، فَقَدِ ارْتَكَزَتْ على أَطْرافِها الأَرْبَعةِ، وَأَخَذَتْ تُزَمْجِرُ وَتَصيحُ بِأَصْواتٍ مُرْعِبةٍ. وَعِنْدَما وَقَعَ نَظَرُها عَلى السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر أَسْرَعَتْ نَحْوَهُ، وَصَرَخَتْ جريس بُوول: «إِنْصَرِفْ يا سَيِّدي، فَقَدْ أَثارَتْها رُؤْيَتُكَ.»

قالَ: «كَلّا لَنْ أَنْصَرِفَ، فَأَنا أُريدُ أَنْ يَعْرِفَ هؤلاءِ السّادةُ مَنْ هِيَ زَوْجَتي.»

في تِلْكَ اللَّحظةِ، طَوَّقَتِ المَرْأَةُ الرَّهيبةُ عُنُقَ زَوْجِها بِيَدَيْها، لا عَنْ حُبٍّ وَلكِنْ بَدَتْ كَمَنْ يُريدُ قَتْلَهُ. وَكانَتْ عِنْدَها القُوَّةُ الكافيةُ لِتَنْفيذِ ما أَرادَتْ.
قاوَمَها السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر بِكُلِّ قُوَّتِهِ إلى أَنْ تَمَكَّنَ مِنْ دَفْعِها إلى مَقْعَدٍ، وَأَوْثَقَ يَدَيْها وَقَدَمَيْها. وَكانَ طَوالَ الوَقْتِ يَتَجَنَّبُ إيذاءَها ما أَمْكَنَ.
حاوَلَ مِيْسُون – خِلالَ الصِّراعِ – أَنْ يَتَسَلَّلَ وَيَهْرُبَ، وَلكِنَّ رُوتْشِسْتر أَمَرَهُ أَن يَبْقى فَأَطاعَ.

وَعِنْدَما هَدَأَتِ المَرْأَةُ قالَ رُوتْشِسْتر: «هذِهِ هِيَ زَوْجَتي، وَهذا هُوَ سُلوكُها مُنْذُ خَمْسةَ عَشَرَ عامًا. إِنَّها مَجْنونةٌ، وَقَدْ كانَتْ أُمُّها قَبْلَها



مَجْنونَةٌ أَيْضًا، كَما أَنَّ لَها أَخًا مَجْنونًا. لَمْ أَعْرِفْ شَيْئًا عَنْ كُلِّ هذا قَبْلَ زَواجي.» ثُمَّ الْتَفَتَ إِلى مِيسُون قائِلًا: «لَقَدْ حاوَلْتُ جَهْدي، وَلكِنِّي

عاجزٌ عَنْ أَنْ أَرُدَّها لِعَقْلِها.» ثُمَّ أَشارَ إلَيَّ قائِلًا: «هذِهِ هِيَ المَرْأَةُ الَّتي أُحِبُّها. هذِهِ الفَتاةُ العَزيزَةُ الرَّقيقَةُ الَّتي تَقِفُ أَمامَكُمْ صامِتَةً تُعاني أَشَدَّ أَنْواعِ الأَسَى وَالأَلَمِ. أَنا أَعْلَمُ أَنَّني قَدِ اقْتَرَفْتُ جُرْمًا في حَقِّها، وَلكِنِّي أَشْعُرُ بِشَديدِ الحاجَةِ إلَيْها، وَأَرَدْتُ أَنْ أَتَزَوَّجَها دونَ أَنْ تَعْلَمَ شَيْئًا عَنْ زيجَتي الأُولى.» سَكَتَ لَحْظَةً ثُمَّ قالَ: «اِذْهَبوا عَنِّي! هَيّا انْصَرِفْ يا بريجْز وَأَنْتَ يا مِيسُون، اِنْصرِفا وَلا تَطَأ عَتَبَةَ بابي أَبَدًا. لَقَدْ شاهَدْتُمْ جَميعًا جَهَنَّمَ الَّتي أَعيشُ فيها. هَيّا ارْحَلوا بِلا رَجْعَةٍ.»

خَرَجْنا وَتَرَكْنا السَّيِّدَ رُوتْشِسْتر يَتَحَدَّثُ مَعَ جريس بُوول، وَأَقْبَلَ بريجْز يُحَدِّثُني. قالَ: «آنِسَةُ إير، أَنا أَعْلَمُ أَنَّكِ بَريئَةٌ مِمّا حَدَثَ، وَسَيُسَرُّ عَمُّكِ لِسَماعِ ذلِكَ – إذا كانَ لا يَزالُ عَلى قَيْدِ الحَياةِ – عِنْدَ عَوْدَةِ السَّيِّدِ مِيسُون إلى مادِيرا.»

سَأَلْتُهُ: «هَلْ تَعْرِفُ عَمِّي يا سَيِّدي؟»

أَجابَ: «كَلّا، وَلكِنَّ السَّيِّدَ مِيسُون صَديقُهُ، وَكانَ مُقيمًا مَعَهُ عِنْدَما وَصَلَ عَمَّكِ خِطابٌ مِنْكِ تُخْبِرينَهُ بِقُرْبِ قِرانِكِ. وَأَدْهَشَ الخَبَرُ مِيسُون، وَأَخْبَرَ عَمَّكِ أَنَّ رُوتْشِسْتر مُتَزَوِّجٌ مِنْ أُخْتِهِ فَانْزَعَجَ عَمُّكِ، وَأَرْسَلَ مِيسُون إلى إنْجِلْترا لإيقافِ هذِهِ الزِّيجَةِ المُحَرَّمَةِ. وَقَدْ لَجَأَ إلَيَّ مِيسُون في لَنْدَن بِصِفَتي مُحامِيًا يَطْلُبُ مِنِّي المُساعَدَةَ. وَنَحْمَدُ اللهَ عَلى وُصولِنا قَبْلَ فَواتِ الأَوانِ.

«كانَ عَمُّكِ مَريضًا جِدًّا عِنْدَما تَرَكَهُ مِيسُون، وَأَخْشى أَنْ يَكونَ قَدْ وافاهُ الأَجَلُ. وَالأَفْضَلُ لَكِ أَنْ تَبْقَى في إنْجِلْترا حَتَّى نُوافِيَكِ بِأَنْباءٍ أُخْرى

عَنْهُ.» ثُمَّ الْتَفَتَ إلى مِيْسُون وَقالَ: «أَرَى أَنَّهُ لا فائِدةَ مِنْ بَقائِنا هُنا الآنَ.»

وَأَسْرَعَ مِيْسُون بِالرَّدِّ قائِلًا: «لا، لا فائِدةَ قَطُّ؛ فَلْنَنْصَرِفْ بِأَسْرَعِ ما يُمْكِنُ. كَمْ أَمْقُتُ هذا المَكانَ اللَّعينَ؟»

اِنْصَرَفَ الجَميعُ وَصِرْتُ وَحْدي. حينَئِذٍ فَقَطْ أَدْرَكْتُ فَظاعةَ المَوْقِفِ، وَكادَ قَلْبي يَتَمَزَّقُ مِنْ شِدَّةِ الحُزْنِ وَالأَلَمِ. وَعُدْتُ إلى غُرْفَتي، وَأَوْصَدْتُ البابَ، وَجَلَسْتُ أُحاوِلُ أَنْ أُفَكِّرَ. وَبِالرَّغْمِ مِمّا كُنْتُ فيهِ مِنَ الأَلَمِ وَالأَسى، كانَ دَمْعي عَصِيًّا، وَكَأَنَّما كانَ مُدَّخَرًا لِلْأَيّامِ المُقْبِلةِ، وَالمُسْتَقْبَلِ المَجْهولِ المُظْلِمِ.

الْفَصْلُ الرّابِعُ وَالعِشْرونَ

جَلَسْتُ في حُجْرَتي وَحيدةً حَزينةً، وَكَأَنّي أَصْبَحْتُ شَخْصًا آخَرَ. بِالْأَمْسِ كانَتْ جِين إير تَتَطَلَّعُ إلى مُسْتَقْبَلٍ مُشْرِقٍ، تَصيرُ فيهِ زَوْجةً لِمَنْ تُحِبُّ. أَمّا اليَوْمَ فَقَدْ أَصْبَحتْ فَتاةً مُحطَّمةً مُجَرَّدةً مِنْ كُلِّ أَمَلٍ. لَمْ أَلُمْ رُوتْشِسْتر عَلى ما حَدَثَ لي. فَقَدْ أَدْرَكْتُ أَنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ إيذائي. وَشَعَرْتُ بِأَنّي قَدْ وَصَلْتُ إلى نِهايةِ طَريقِ الحَياةِ، وَتَمَنَّيْتُ المَوْتَ. وَأَخيرًا عَقَدْتُ العَزْمَ عَلى تَرْكِ ثُورنْفيلد هُول لِلْأَبَدِ.

عِنْدَما أَقْبَلَ المَساءُ شَعَرْتُ بِالْوَهَنِ، وَلَمْ أَكُنْ قَدْ تَذَوَّقْتُ الطَّعامَ مُنْذُ الصَّباحِ الباكِرِ. وَسادَ المَنْزِلَ صَمْتٌ عَميقٌ حَتّى تَخَيَّلْتُ أَنّي وَحْدي، وَفَتَحْتُ البابَ بِحَذَرٍ. فَاصْطَدَمْتُ بِشَخْصٍ، ثُمَّ شَعَرْتُ بِذِراعَيْنِ يُطَوِّقاني، وَسَمِعْتُ صَوْتَ السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر يَقولُ: «الحَمْدُ للهِ، أَخيرًا ظَهَرْتِ يا جِين. لَقَدِ انْتَظَرْتُكِ طَويلًا، وَلَمْ أَسْمَعْ صَوْتًا، فَخِفْتُ أَنْ يَكونَ قَدْ أَلَمَّ بِكِ مَكْروهٌ. لِماذا لَمْ تَأْتي إلَيَّ؟ لِماذا هذا الصَّمْتُ؟ أَفْضَلُ عِنْدي بِكَثيرٍ أَنْ تَصْرُخي وَتَغْضَبي. فَقَدْ كَذَبْتُ عَلَيْكِ يا جِين، وَلكِنْ أُقْسِمُ لَكِ إنّي لَمْ أَقْصِدْ إيذاءَكِ. إنّي أُحِبُّكِ يا جِين، أُحِبُّكِ مِنْ كُلِّ قَلْبي، وَبِكُلِّ جَوارِحي، وَأَظُنُّكِ تَعْرِفينَ ذلِكَ. فَهَلْ لي أَنْ أَطْمَعَ في صَفْحِكِ عَنّي؟»

كُنْتُ قَدْ صَفَحْتُ عَنْهُ قَبْلَ أَنْ أَسْمَعَ كَلِماتِهِ، وَلكِنَّني لَمْ أُصارِحْهُ بِذلِكَ. قُلْتُ: «إنّي مُتْعَبةٌ وَفي حاجةٍ لِقَليلٍ مِنَ الماءِ.»

حَمَلَني، وَهَبَطَ إلى حُجْرةِ المَكْتبةِ، وَأَعْطاني قَليلًا مِنْ عَصيرِ البُرْتُقالِ، فَشَرِبْتُهُ وَبَدَأْتُ أَسْتَرِدُّ بَعْضَ قُوَّتي.

جَلَسَ بِجانِبي وَأَخَذَ يُلاطِفُني، وَلكِنِّي أَشَحْتُ بِوَجْهي عَنْهُ، فَقالَ: «يا إلهي، هَلْ تَعْتَقِدينَ أَنْتِ أَيْضًا أَنَّ بِرْتا مِيسُون زَوْجَتي، وَأَنَّها أَحَقُّ مِنْكِ بِحُبِّي وَحَناني؟ لا يا جين، أُقْسِمُ لَكِ إنَّها لَيْسَتْ زَوْجَتي، وَسَتكونينَ أَنْتِ زَوْجَتي وَتَحمِلينَ اسْمي. فَلْنَرْحَلْ مِنْ هُنا وَنعِشْ في جَنوبِ فَرَنْسا. إنَّ لي بَيْتًا هُناكَ، وَيُمكِنُنا أَنْ نَبْدَأَ هُناكَ حَياةً جَديدةً هانِئةً.»

قُلْتُ: «وَلكِنَّ زَوْجَتَكَ مَوْجودةٌ يا سَيِّدي، وَلَقَدْ أَخْبَرْتَنا بِذلِكَ أَنْتَ نَفْسُكَ هذا الصَباحَ.»

قالَ وَقَدْ تَهَدَّجَ صَوْتُهُ: «قولي لي صَراحةً يا جِين إنَّكِ لَمْ تُحِبّيني، وَلَمْ يَكُنْ هَدَفُكِ إلّا أَنْ تُصْبِحي لي زَوْجةً، أَلَيْسَ كَذلِكَ؟ الآنَ بَعْدَ أَنْ عَرَفْتِ أَنّي غَيْرُ قادِرٍ عَلى أَنْ أَكونَ لكِ زَوْجًا، تُشيحينَ بِوَجْهِكِ عَنِّي وَلا تُريدينَني.»

تَأَثَّرْتُ مِنْ كَلِماتِهِ وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ في ذلِكَ اليَوْمِ انْهَمَرَتْ دُموعي وَقُلْتُ: «إنِّي أُحِبُّكَ. أُحِبُّكَ الآنَ أَكْثَرَ مِمّا كُنْتُ أُحِبُّكَ قَبْلًا. وَلكِنْ يَجِبُ أَنْ أَدْفِنَ هذا الحُبَّ داخِلَ صَدْري، وَلْيَكُنْ هذا آخِرَ حَديثٍ يَجْمَعُ بَيْنَنا.»

صَرَخَ مُحْتَجًّا: «ماذا تَقولينَ يا جِين؟ لِمَ لا نَبْقى مَعًا ما دُمْتُ أُحِبُّكِ، وَما دُمْتِ أَنْتِ تُحِبّينني؟»

قُلْتُ: «أَوّاهُ يا سَيِّدي، أَلا تَرى مَعي ضَرورةَ رَحيلي مِنْ هُنا.»

قالَ: «بَلى أَرى ذلِكَ، وَلكِنْ لِنَرْحَلْ مَعًا وَنَبْعَثْ بِأَدِيل إلى مَدْرسةٍ داخليَّةٍ، وَنُوصدْ أَبْوابَ ثُورنْفيلد هُول إلى الأَبَدِ. وسَأُكَلِّفُ جريس بُوول بِرعايةِ مَنْ تُسَمُّونَها زَوْجَتي، وَنَرْحَلُ معًا إلى فَرَنْسا.



«اِسْمَحي لي أَنْ أَسْرُدَ عَلَيْكِ قِصَّتي ثُمَّ أَصْدِري حُكْمَكِ بَعْدَ ذلِكَ، وَلَنْ أُطيلَ عَلَيْكِ. كانَ لي أَخٌ أَكْبَرُ مِنّي، وَكانَ والِدي شَغوفًا بِجَمْعِ المالِ يُفَضِّلُهُ على أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ في العالَمِ، وَلَمْ يَكُنْ يُريدُ أَنْ تُوَزَّعَ ثَرْوَتُهُ بَيْني وَبَيْنَ أَخي بَعْدَ وَفاتِهِ، فَتَرَكَها كُلَّها لِأَخي. وَراحَ يُدَبِّرُ لي طَريقَةً يُؤَمِّنُ بِها مُسْتَقْبَلي أَيْضًا. كانَ لَهُ صَديقٌ مِنَ الأَثْرياءِ يُقيمُ في جُزُرِ الهِنْدِ الغَرْبِيَّةِ، وَلِهذا الصَّديقِ بِنْتٌ وَوَلَدانِ. وَسَمِعَ أَنَّهُ يَنْوي أَنْ يَمْنَحَ ابْنَتَهُ مَبْلَغَ ثَلاثينَ أَلْفِ جُنَيْهٍ عِنْدَ زَواجِها. وَرَأَى والِدي الفُرْصَةَ سانِحَةً، فَأَرْسَلَني إلى جُزُرِ الهِنْدِ الغَرْبِيَّةِ - عِنْدَما بَلَغْتُ الحادِيَةَ وَالعِشْرينَ مِنْ عُمْري - دونَ أَنْ أَعْرِفَ شَيْئًا عَنْ نِيَّتِهِ. وَهُناكَ الْتَقَيْتُ بِالْعَروسِ - بِرْتا مِيسُون - الَّتي اخْتارَها لي. وَكانَتْ حَقًّا امْرَأَةً جَميلَةً، وَقَدْ رَأَيْتُها عِدَّةَ مَرّاتٍ، وَلكِنّي لَمْ أَخْتَلِ بِها وَلَوْ مَرَّةً واحِدَةً؛ فَقَدْ كانَتْ دائِمًا مُحاطَةً بِالمُعْجَبينَ وَأَصْبَحْتُ أَحَدَهُمْ. بَدا لي أَنَّ أُسْرَتَها تُعامِلُني مُعامَلَةً خاصَّةً، وَتَخَيَّلْتُ أَنَّ بِرْتا تُحِبُّني وَأَنا أُحِبُّها، وَتَمَّ زَواجُنا بِسُرعَةٍ.

«لَمْ يَكُنْ حُبُّنا حَقيقِيًّا، فَقَدْ كُنْتُ شابًّا طائِشًا. وَلَمْ أُقابِلْ أُمَّها قَطُّ، وَظَنَنْتُ أَنَّها مُتَوَفّاةٌ، وَلكِنَّني عَلِمْتُ فيما بَعْدُ أَنَّها كانَتْ مَجْنونَةً وَكذلِكَ كانَ أَخوها الثّاني.

«كانَتْ عائِلَتي تَعْلَمُ كُلَّ ذلِكَ، وَلكِنَّني لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ شَيْئًا حَتّى حَدَثَ ما حَدَثَ. كانَ كُلُّ ما اهْتَمَّتْ بِهِ أُسْرَتي هُوَ حُصولي عَلى مَبْلَغِ الثَّلاثينَ أَلْفِ جُنَيْهٍ.

«اشْتَدَّ غَضَبي عِنْدَما اكْتَشَفْتُ المَكيدَةَ الدَّنيئَةَ، وَلَنْ أَنْسى قَطُّ

ما عانَيْتُهُ طَوالَ الأَرْبَعِ السَّنواتِ الأُولى مِنْ حَياتي الزَّوْجِيَّةِ. كانَ كُلُّ ما تَفْعَلُهُ أَوْ تَقولُهُ زَوْجَتي شَرًّا. وَأَخَذَ جُنونُها يَزْدادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ.

«في تِلْكَ الفَتْرَةِ، ماتَ والِدي وَشَقيقي، وَأَصْبَحْتُ غَنِيًّا، وَلكِنَّني لَمْ أَهْنَأْ بِالْعَيْشِ. فَقَدْ أَثْبَتَ الأَطِبّاءُ أَنَّ زَوْجَتي مَجْنونَةٌ حَقًّا، وَلا أَمَلَ في شِفائِها، وَلكِنِّي لَمْ أَقْدِرْ عَلى تَرْكِها. سَئِمْتُ الحَياةَ، وَتَمَنَّيْتُ المَوْتَ. وَذاتَ يَوْمٍ، أَخَذْتُ بُنْدُقِيَّتي وَخَرَجْتُ إِلى الحَديقَةِ ناوِيًا الإِنْتِحارَ. كانَ الجَوُّ حارًّا وَعاصِفًا، وَلكِنْ في لَحْظَةِ خُروجي هَدَأَتِ الرِّياحُ وَهَدَأَتْ مَعَها سَوْرَتي (شِدَّة غَضَبي) وَبَدَأْتُ أُفَكِّرُ. قَرَّرْتُ أَنْ أَعودَ إِلى إِنْجِلْترا، وَأَتْرُكَ زَوْجَتي في ثُورنْفيلد تَحْتَ رِعايَةِ مَنْ يَعْتَني بِها، بَيْنَما أَطوفُ أَرْجاءَ العالَمِ مُحاوِلًا أَنْ أَنْسى هُمومي. وَلَمْ يَكُنْ في إِنْجِلْترا مَنْ يَعْلَمُ بِخَبَرِ زَواجي، فَقَدْ خَجِلَ والِدي أَنْ يَقولَ إِنَّهُ اخْتارَ لِابْنِهِ زَوْجَةً مَجْنونَةً!

«جِئْتُ إِلى هُنا، وَخَصَّصْتُ لِزَوْجَتي الطّابَقَ الثّالِثَ مِنْ ثُورنْفيلد هُول، وَلَمْ يَعْلَمْ بِوُجودِها غَيْرُ الدُّكْتور كارْتر، وَجرِيس بُوول الَّتي تَقومُ عَلى رِعايَتِها. وَكُنْتُ أَخافُ لَوْ عَلِمَ النّاسُ بِوُجودِها أَنْ يَرْفُضَ الخَدَمُ وَالعُمّالُ العَمَلَ عِنْدي، لِذا كَتَمْتُ السِّرَّ، وَرُحْتُ أَجوبُ البِلادَ شَرْقًا وَغَرْبًا أَبْحَثُ عَنِ امْرَأَةٍ فاضِلَةٍ عاقِلَةٍ.»

قُلْتُ: «وَلكِنَّكَ يا سَيِّدي لَمْ تَكُنْ حُرًّا طَليقًا حَتّى تَبْحَثَ عَنِ امْرَأَةٍ أُخْرى.»

قالَ: «رُبَّما، وَلكِنِّي في قَرارَةِ نَفْسي كُنْتُ أَعْتَقِدُ أَنِّي كَذلِكَ.

وَعَزَمْتُ عِنْدَما أَجِدُ المَرْأَةَ الَّتي أَبْحَثُ عَنْها، أَنْ أُخْبِرَها بِكُلِّ أُموري، آمِلًا أَنْ تَقْبَلَني بَعْدَ أَنْ تُدْرِكَ حَقيقَةَ مَوْقِفي.»

سَأَلْتُ: «وَهَلْ وَجَدْتَ تِلْكَ المَرْأَةَ؟ وَماذا كانَ رَأْيُها؟»

أَجابَ: «نَعَمْ وَجَدْتُها، وَأَنْتِ تَعْلَمينَ ذلِكَ. أَمّا رَأْيُها فَلا أَعرِفُهُ.» ثُمَّ اسْتَطْرَدَ في كَلامِهِ قائِلًا: «أَمْضَيْتُ عَشْرَ سِنينَ أَبْحَثُ عَنْها، وَكانَتْ سَنواتٍ مُضْنِيَةً. وَأَخيرًا عُدْتُ في يَنايِرِ الماضي إلى ثُورنْفيلد يائِسًا حَزينًا، وَقابَلْتُ المَرْأَةَ الَّتي كُنْتُ أَبْحَثُ عَنْها عَلى عَتَبَةِ بابي. وَالباقي أَنْتِ تَعْرِفينَهُ يا جِين.»

قُلْتُ: «بِرَبِّكَ لا تُكْمِلْ، فَلَمْ أَعُدْ أَحْتَمِلُ أَكْثَرَ مِنْ ذلِكَ.»

قالَ: «أَنْتِ عَلى حَقٍّ. وَالآنَ وَقَدْ عَرَفْتِ حِكايَتي، قُولي إِنَّكِ سَتَصْفَحينَ عَنّي وَأَنَّكِ سَتَبْقينَ مَعي، وَتَقِفينَ دائِمًا إِلى جانِبي.»

كُنْتُ بَيْنَ نارَيْنِ، وَلَمْ أَعْرِفْ بِماذا أُجيبُ. كانَ حُبِّيَ الشَّديدُ لَهُ يَدْفَعُني إِلى قَبولِ ما يَعْرِضُهُ وَالبَقاءِ مَعَهُ. وَكانَ حِرْصي عَلى المَبْدَإِ الَّذي يُحَرِّمُ ذلِكَ البَقاءَ يَمْنَعُني مِنْ ذلِكَ.

قُلْتُ أَخيرًا: «يا سَيِّدُ رُوتْشِسْتر، مِنَ المُحالِ أَنْ أَبْقى هُنا، وَلْيَكُنِ اللهُ في عَوْنِكَ.» وَاتَّجَهْتُ نَحْوَ البابِ، وَأَنا أُحِسُّ بِقَلْبي يَكادُ يَتَمَزَّقُ حُزْنًا وَأَلَمًا.

الْفَصْلُ الخامِسُ وَالعِشْرونَ

نِمْتُ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ نَوْمًا عَميقًا، عَلى غَيْرِ ما كُنْتُ أَتَوَقَّعُ، وَاسْتَيْقَظْتُ مُبَكِّرَةً. وَعَقَدْتُ العَزْمَ عَلى مُغادَرَةِ ثُورنْفيلد، وَتَرْكِ السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر بِأَسْرَعَ ما يُمْكِنُ. وَقَبْلَ أَنْ يَسْتَيْقِظَ أَحَدٌ، أَخَذْتُ مَعي قَليلًا مِنَ النُّقودِ، وَبَعْضَ الطَّعامِ وَتَرَكْتُ الدّارَ مُسْرِعَةً.

كانَ الجَوُّ صَحْوًا جَميلًا، فَسَلَكْتُ الطَّريقَ المُؤَدِّيَ إلى بَلْدَةٍ لا يَعْرِفُني فيها أَحَدٌ. وَلا يَكونُ فيها لِلسَّيِّدِ رُوتْشِسْتر أَصْدِقاءُ.

بَعْدَ بُرْهَةٍ أَقْبَلَتْ نَحْوي مَرْكَبَةٌ، فَنادَيْتُ سائِقَها وَتَوَقَّفَ. وَصَعِدْتُ إِلَيْها، وَأَعْطَيْتُ السّائِقَ كُلَّ ما مَعي مِنْ نُقودٍ - مَبْلَغَ عِشْرينَ شِلِنًا - وَاتَّفَقْنا عَلى أَنْ يَحْمِلَني مَعَهُ المَسافَةَ الَّتي تُوازي ما دَفَعْتُهُ مِنْ أَجْرٍ.

سِرْنا مُدَّةَ يَوْمَيْنِ، وَأَنْزَلَني السّائِقُ وَسَطَ أَرْضٍ مُنْبَسِطَةٍ مَزْروعَةٍ. وَقَضَيْتُ أَوَّلَ لَيْلَةٍ في الخَلاءِ أَتَطَلَّعُ إلى النُّجومِ، ثُمَّ قُمْتُ مُبَكِّرَةً عِنْدَ بُزوغِ الشَّمْسِ. وَسِرْتُ في الطَّريقِ المُتَّجِه شَرْقًا، وَأَنا أَجْهَلُ مَصيريَ. وَكُنْتُ خالِيَةَ الوِفاضِ مِنْ نُقودٍ أَوْ زادٍ، وَكَمْ تَمَنَّيْتُ المَوْتَ، وَلكِنَّ المَوْتَ لا يَأْتي بِالتَّمَنِّي. وَكانَ عَلَيَّ أَنْ أَعيشَ، لِذلِكَ كانَ لا بُدَّ مِنَ العَمَلِ.

سِرْتُ طَويلًا، ووَصَلْتُ إلى قَرْيَةٍ وَلكِنّي لَمْ أَجِدْ فيها ما يُشَجِّعُني عَلى البَقاءِ، فَتَرَكْتُها وَمَضَيْتُ في طَريقي. وَقابَلْتُ مُزارِعًا اقْتَسَمَ مَعي عَشاءَهُ المُكَوَّنَ مِنَ الجُبْنِ والخُبْزِ، وَكانَ ذلِكَ أَوَّلَ طَعامٍ تَناوَلْتُهُ في ذلِكَ اليَوْمِ.

وَسِرْتُ في طَريقي، وَكانَتِ اللَّيْلَةُ بارِدةً وَالأَمْطارُ تَهْطِلُ، وَشَعَرْتُ بِالْإِعْياءِ.

ظَنَنْتُ أَنّي في حُلْمٍ حينَ لاحَ لي نُورٌ مِنْ بَعيدٍ، وَلكِنَّني اتَّجَهْتُ



نَحْوَهُ. ووَصَلْتُ إلى مَنْزِلٍ صَغيرٍ مُنْعَزِلٍ كانَ النُّورُ يَنْبَعِثُ مِنْهُ، وَاقْتَحَمْتُ حَديقَةَ المَنْزِلِ. وَرَأَيْتُ مِنْ نافِذَةٍ صَغيرةٍ سَيِّدَتَيْنِ في مُقْتَبَلِ العُمْرِ، وَمعَهُما خادِمةٌ عَجوزٌ، وَكانَتِ السَّيِّدتانِ تَقْرآنِ.

قَرَعْتُ البابَ، فَسَمِعْتُ صَوْتَ كَلْبٍ يَنْبَحُ. وَبَعْدَ بُرْهةٍ فَتَحَتْ لِيَ البابَ العَجوزُ وَسَأَلَتْ: «ماذا تُريدينَ؟ لِماذا أَنْتِ وَحْدَكِ خارِجَ بَيْتِكِ في هذِهِ السّاعةِ؟»

أَجَبْتُ: «أَرْجوكِ، إنِّي غَريبةٌ عَنْ هذِهِ الدِّيارِ وَلَيْسَ لي مَأْوَى. هَلْ يُمْكِنُ أَنْ أَقْضيَ لَيْلَتي هُنا؟ وَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ تَتَكَرَّمي عَلَيَّ بِكِسْرةِ خُبْزٍ؟»

قالَتْ: «سَأُعْطيكِ الخُبْزَ، أَمّا الفِراشُ فَلا. مَنْ أَدْراني مَنْ تَكونينَ؟» وَأَحْضَرَتْ لي قِطْعَةَ خُبْزٍ، ثُمَّ أَغْلَقَتِ البابَ في وَجْهي قائِلَةً: «اِنْصَرِفي مِنْ هُنا وَإلّا أَطْلَقْتُ عَلَيْكِ الكَلْبَ.»

قُلْتُ أُحَدِّثُ نَفْسي: «لَمْ يَبْقَ لي سِوى المَوْتِ.» وَلَمْ أَكُنْ قادِرةً عَلى الحَرَكَةِ مِنْ شِدَّةِ الإعْياءِ فَتَوَسَّدْتُ السُّلَّمَ. عِنْدَئِذٍ، سَمِعْتُ صَوْتَ رَجُلٍ يَقولُ: «حاشا أَنْ تَموتي عَلى عَتَبةِ بابي.» وَقَرَعَ البابَ بِشِدَّةٍ قائِلًا: «أَسْرِعي يا حَنَّة وافْتَحي البابَ، هُنا امْرَأةٌ مِسْكينةٌ في حاجةٍ إلى المُساعدةِ.»

أَجابَتْ حَنَّة: «أَعْلَمُ ذلِكَ يا سَيِّدي، وَقَدْ أَمَرْتُها أَنْ تَنْصَرِفَ خَوْفًا مِنْ أَنْ تكونَ مِنَ المُجْرِمينَ الأَشْرارِ، أَوْ أَنْ يَكونَ لَها أَعْوانٌ.»

قالَ: «لا يا حَنَّة، لا يُمْكِنُ أَنْ نَتْرُكَها هَكذا عَلى عَتَبةِ بابِنا. هَلُمّي

ساعِديها عَلى الدُّخولِ.»

عِنْدَما دَخَلْنا، أَقْبَلَتْ عَلَيْنا الشّابَّتانِ وَسَأَلَتْهُ إِحْداهُنَّ: «مَنْ هذِهِ يا سَنْجُن؟»

أَجابَ: لا أَعْلَمُ يا دَيانا.»

قالَتِ الأُخْرى: «مِسكينةٌ، هَلْ هِيَ جائِعةٌ وَمُرْهَقةٌ فَقَطْ، أَمْ هِيَ مَريضةٌ؟ إِنَّها شاحِبةُ اللَّوْنِ وَضَعيفةٌ جِدًّا.»

قالَ الرَّجُلُ: «أَظُنُّها فَقَطْ جائِعةً وَمُرْهَقةً. أَحْضِري لَنا لَبَنًا وَخُبْزًا يا حَنَّة.»

أَخَذْتُ اللَّبَنَ وَالخُبْزَ وَجَلَسْتُ قُرْبَ المِدْفَأَةِ. وَبَدَأْتُ أَشْعُرُ بِالْحَياةِ تَدِبُّ في أَوْصالي. وَبَدَأَ الرَّجُلُ يُوَجِّهُ لِيَ الأَسْئِلَةَ: مَنْ أَنْتِ؟ أَيْنَ تُقيمينَ؟ أَيْنَ عائِلَتُكِ؟ مَنْ هُمْ أَصْدِقاؤُكِ؟ إِلَخ.

كُنْتُ مُتْعَبةً جِدًّا، فَرَجَوْتُهُ أَنْ يُمْهِلَني، وَوَعَدْتُ أَنْ أَقُصَّ عَلَيْهِ حِكايَتي فيما بَعْدُ.

وَأَخَذَتْني حَنَّة إِلى الفِراشِ، وَكانَتْ أَوَّلَ مَرَّةٍ خِلالَ ثَلاثةِ أَيّامٍ أَنامُ فيها عَلى فِراشٍ مُريحٍ.

الْفَصْلُ السّادِسُ وَالعِشْرونَ

مَضَتْ ثَلاثَةُ أَيّامٍ وَأَنا عاجِزَةٌ عَنِ الحَرَكَةِ أَوِ الكَلامِ، وَكُنْتُ أَسْمَعُ وَأُدْرِكُ ما حَوْلي. وَكانَتْ حَنَّة الخادِمَةُ تَدْخُلُ عَلَيَّ بِالطَّعامِ وَالشَّرابِ، كَذلِكَ حضَرَتِ الأُخْتانِ ماري وَديانا عِدَّةَ مَرّاتٍ لِزِيارَتي. أَمّا الأَخُ سَنْجُن فَقَدْ حَضَرَ مَرَّةً واحِدَةً، وَقَدْ عَلِمْتُ مِنْهُ أَنّي لَسْتُ مَريضَةً، وَإِنَّما مُرْهَقَةٌ فَقَطْ وَتَلْزَمُني الرّاحَةُ.

في اليَوْمِ الرّابعِ نَهَضْتُ مِنَ الفِراشِ، وَذَهَبْتُ إِلى حَنَّة في المَطْبَخِ، وَكانَتْ تَصْنَعُ خُبْزًا. وَلَمْ تُسَرَّ بِرُؤْيَتي في أَوَّلِ الأَمْرِ، وَلكِنْ بَعْدَ فَتْرَةٍ وَجيزَةٍ اكْتَسَبْتُ صَداقَتَها، وَأَخَذْنا نَتَجاذَبُ أَطْرافَ الحَديثِ. وَعَلِمْتُ مِنها أَنَّ البَيْتَ يُسَمَّى مُور هاوْس، وَهُوَ مِلْكٌ لِأُسْرَةِ رِيڤَرْز. وَأَنَّ السَّيِّدَ رِيڤَرْز قَدْ تُوفِّيَ مُنْذُ ثَلاثَةِ أَسابيعَ، وَكانَ هذا هُوَ السَّبَبَ في تَجَمُّعِ الأُسْرَةِ هُناكَ.

كانَ الأَخُ سَنْجُن مُعَلِّمًا، أَمّا ديانا وَماري، فَتَعْمَلانِ مُرَبِّيَتَيْنِ عِنْدَ أُسْرَتَيْنِ كَبيرَتَيْنِ في جَنوبِ إِنْجِلْترا.

في ذلِكَ اليَوْمِ تَناوَلْتُ الشّايَ مَعَهُمْ في حُجْرَةِ الجُلوسِ، وَاسْتَأْنَفَ الأَخُ أَسْئِلَتَهُ، وَاقْتَنَعَ بِصِدْقي وَأَمانَتي، وَوَعَدَ بِأَنْ يَجِدَ لي عَمَلًا. وَنَشَأَتْ بَيْني وَبَيْنَ ماري وديانا صَداقَةٌ مَتينَةٌ، أَمّا شُعوري نَحْوَ سَنْجُن فَكانَ مُخْتَلِفًا. كانَ رَجُلًا جادًّا في عَمَلِهِ دَؤُوبًا عَلى القِيامِ بِواجِبِهِ، شَغوفًا بِمَدِّ يَدِ العَوْنِ لِمَنْ يَحْتاجُهُ. وَقَدْ شَعَرْتُ بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ راضِيًا عَنْ حَياتِهِ، أَوْ قانِعًا بِما قُدِّرَ لَهُ.

مَضى عَلَيَّ شَهْرانِ وَأَنا أُقيمُ مَعَ أُسْرَةِ رِيڤَرْز، حَتَّى حانَ مَوْعِدُ عَوْدَةِ ماري وَديانا لِعَمَلِهِما، وَكَذلِكَ عَوْدَةُ سَنْجُن لِبَيْتِهِ في القَرْيَةِ. وَبَدَأَ القَلَقُ يُساوِرُني، كُنْتُ أُفَكِّرُ في مُسْتَقْبَلي. وَذاتَ صَباحٍ، حادَثَتْ سَنْجُن بِشَأْنِ مُشْكِلَتي، فَقالَ: «لَقَدْ وَجَدَتُ لَكِ عَمَلًا قَدْ لا يَرُوقُكِ، فَأَخْبِريني عَنْ رَأْيِكِ بِصَراحَةٍ. تَبَرَّعَ أَحَدُ الأَغْنياءِ بِمَبْلَغٍ مِنَ المالِ لإقامَةِ مَدْرَسَةِ بَناتٍ جَديدةٍ في القَرْيَةِ، وَسَيَكونُ بِها مَنْزِلٌ صَغيرٌ مُكَوَّنٌ مِنْ حُجْرَتَيْنِ لِسَكَنِ ناظِرَةِ المَدْرَسَةِ. فَهَلْ يُمْكِنُكِ أَنْ تَقومي بِعَمَلِ النّاظِرَةِ؟» وَقَبِلْتُ العَرْضَ شاكِرَةً.

في آخِرِ يَوْمٍ لَنا في مُور هاوس، وَصَلَتْ رِسالَةٌ إِلى سَنْجُن ناوَلَها لِأُخْتَيْهِ بَعْدَ أَنْ قَرَأَها.

قالَتْ دَيانا بَعْدَ قِراءَةِ الرِّسالَةِ: «أَخيرًا ماتَ الخالُ جُون.»

أَجابَ سَنْجُن: «نَعَمْ ماتَ وَتَرَكَ ثَرْوَتَهُ لِشَخْصٍ آخَرَ.» وَبَدَتْ عَلَيْهِمْ جَميعًا عَلاماتُ الأَسَى.

قالَتْ ماري: «كَما عِشْنا بِدونِ مُساعَدَتِهِ في الماضي، يُمْكِنُنا أَنْ نَعيشَ في المُسْتَقْبَلِ.»

بَعْدَ أَنْ تَرَكَنا سَنْجُن قالَتْ لي دَيانا: «لا تَظُنّينا عَديمي الشُّعورِ يا جِين. كانَ الخالُ جُون شَقيقَ والِدَتي، وَقَدْ تَشاجَرَ مُنْذُ سِنينَ عَديدةً مَعَ والِدي الَّذي فَقَدَ ثَرْوَتَهُ بِسَبَبِهِ. وَقَدْ جَمَعَ الخالُ جُون ثَرْوةً طائِلَةً، وَكانَ والِدي يَأْمُلُ أَنْ يَتْرُكَ لنا هذِهِ الثَّروة بَعْدَ وَفاتِهِ لِأَنَّهُ بِلا أَوْلادٍ. وَعِشْنا جميعًا على ذلِكَ الأَمَلِ، وَها قَدْ ماتَ الخالُ جُون وَتَرَكَ ثَرْوَتَهُ، وَلكِنْ لِشَخْصٍ آخَرَ لا نَعْرِفُهُ.»

الْفَصْلُ السّابِعُ وَالعِشْرونَ

أَخيرًا، أَصْبَحْتُ رَبَّةَ بَيْتٍ أَمْتَلِكُهُ وَحْدي. وَكانَ عَدَدُ تِلْميذاتي في المَدْرَسةِ في أَوَّلِ يَوْمٍ عِشْرينَ تِلْميذةً، كُلُّهُنَّ يَجْهَلْنَ الكِتابةَ، وَثَلاثٌ فَقَطْ مِنْهُنَّ يَعْرِفْنَ القِراءةَ. وَلَمْ يَكُنِ العَمَلُ سَهْلًا، فَكَثيراتٌ مِنْهُنَّ كُنَّ وَقِحاتٍ عَنيداتٍ، بَيْنَما أَقْبَلَ بَعْضُهُنَّ عَلى تَحْصيلِ العِلْمِ وَالدِّراسةِ بِجِدٍ وَنَشاطٍ.

لَمْ أَكُفَّ عَنِ التَّفْكيرِ في السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر، وَكَثيرًا ما كُنْتُ أَبْكي وَأَنا وَحْدي في المَنْزِلِ في المَساءِ. وَلكِنِّي لَمْ أَنْدَمْ قَطُّ عَلى قَراري بِتَرْكِ ثُورنْفيلد هُول.

بَعْدَ بِضْعةِ أَشْهُرٍ، بَدَأَ عَمَلي في المَدْرَسةِ يُثْمِرُ، وَأَقْبَلَتِ البَناتُ عَلى الدِّراسةِ بِرِضًا وَاقْتِناعٍ. وَأَخَذْتُ أُلَقِّنُ بَعْضَهُنَّ دُروسًا في اللُّغةِ الفَرَنْسيَّةِ. وَدَعَتْني بَعْضُ العائِلاتِ لِزِيارَتِها، وَبَدَأْتُ أَشْعُرُ بِالاِسْتِقْرارِ بَيْنَ الأَصْدِقاءِ.

كُنْتُ وَسَنْجُن نَتَقابَلُ كَثيرًا، فَقَدْ كانَ يَحْضُرُ لِلْمَدْرَسةِ مَرَّتَيْنِ في الأُسْبوعِ لِلتَّدْريسِ، وَأَحْيانًا كانَ يَزورُني في مَنْزِلي في المَساءِ. وَكُنّا نَتَحَدَّثُ في شَتَّى المَسائِلِ، وَمَشاكِلِ المَدْرَسةِ والقَرْيةِ، وَأَحْيانًا كانَ يُحَدِّثُني عَنْ نَفْسِهِ. وَكانَ مَجالُ العَمَلِ أَمامَهُ في بَلَدِهِ مُتَّسِعًا، وَقُرْبُهُ مِنْ أُخْتَيْهِ مَرْغوبًا، وَلكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَهْتَمُّ بِشَيْءٍ مِنْ هذا كُلِّهِ.

حَضَرَ ذاتَ مَساءٍ وَكُنْتُ مُنْهَمِكةً في رَسْمِ وَتَلْوينِ لَوْحةٍ. فَوَقَفَ

يُدَقِّقُ النَّظَرَ فيها. وَبَعْدَ أَنْ جَلَسَ بِجِواري نِصْفَ ساعةٍ، نَهَضَ لِيَنْصَرِفَ. وَلَمّا مَرَّ بِاللَّوْحةِ تَوَقَّفَ، وَقَطَعَ مِنْها رُكْنًا صَغيرًا أَخَذَهُ مَعَهُ، وَانْصَرَفَ دونَ أَنْ يُفَسِّرَ عَمَلَهُ وَدُونَ أَنْ أَسْأَلَهُ تَفْسيرًا، وَكُنْتُ قَدْ تَعَوَّدْتُ أَنْ أَراهُ يَقومُ بِأَعْمالٍ غَريبةٍ.

الْفَصْلُ الثّامِنُ وَالعِشْرونَ

هَبَّتْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ عاصِفةٌ هَوْجاءُ. وما إنْ أَصْبَحَ الصَّباحُ، حَتَّى كانَتِ الأَرْضُ مُغَطّاةً بِطَبَقَةٍ كَثيفةٍ مِنَ الثَّلْجِ. وَبَعْدَ انْتِهاءِ الدِّراسةِ، جَلَسْتُ في داري قُرْبَ المِدْفَأَةِ أَقْرَأُ كِتابًا. مَرَّتْ عَلَيَّ ساعةٌ مِنَ الزَّمَنِ، ثُمَّ سَمِعْتُ طَرْقًا عَلى البابِ. وَكانَ القادِمُ سَنْجُن، فَسَأَلْتُهُ بِقَلَقٍ: «ما الَّذي أَتى بِكَ في هذِهِ السّاعةِ المُتَأَخِّرةِ وفي هذا الجَوِّ البارِدِ؟ لَعَلَّهُ خَيْرٌ، ماذا حَدَثَ؟»

«لا شَيْءَ يا جين. شَعَرْتُ فَقَطْ بِحاجَتي لِلْحَديثِ إلى صَديقٍ، بَعْدَ أَنْ قَضَيْتُ اليَوْمَ وَحْدي.»

دَخَلَ وَجَلَسَ صامِتًا، ثُمَّ أَخْرَجَ رِسالةً قَرَأَها بِإمْعانٍ وَأَعادَها إلى جَيْبِهِ قائِلًا: «أَمْسِ اكْتَشَفْتُ شَيْئًا غَريبًا، وَعُدْتُ اليَوْمَ لِتَوْضيحِهِ لي.»

لَمْ أَفْهَمْ ماذا يَعْني، وَبَقيتُ صامِتةً، فَقالَ: «الأَفْضَلُ أَنْ أَبْدَأَ القِصَّةَ مِنْ أَوَّلِها. مُنْذُ نَحْوَ عِشْرينَ عامًا وَقَعَ أَحَدُ الأَشْخاصِ في غَرامِ فَتاةٍ مِنْ بَناتِ الأَثْرياءِ وَأَحَبَّتْهُ كَما أَحَبَّها، وَاتَّفَقا عَلى الزَّواجِ. غَيْرَ أَنَّ أُسْرةَ الفَتاةِ عارَضَتْ هذا الزَّواجَ. وَبِالرَّغْمِ مِنْ ذلِكَ فَقَدْ تَمَّ الزَّواجُ. وَلكِنْ لِلْأَسَفِ، تُوُفِّيَ الزَّوْجانِ بَعْدَ سَنَتَيْنِ مِنْ زَواجِهِما، وَتَرَكا وَراءَهُما طِفْلةً صَغيرةً، أَخَذَتْها خالَتُها وَزَوْجُ خالَتِها السَّيِّدُ ريد لِتَعيشَ بَيْنَ أَوْلادِهِما.

«لا أَعْرِفُ كَيْفَ كانَتْ حَياةُ تِلْكَ الصَّغيرةِ اليَتيمةِ بَيْنَ أَوْلادِ خالَتِها، وَهَلْ كانَتْ حَياةً سَعيدةً أَمْ لا. وَكُلُّ ما أَعْرِفُهُ أَنَّها أُرْسِلَتْ لِمَدْرَسةِ لُووُد، عِنْدَما بَلَغَتِ العاشِرةَ مِنْ عُمْرِها. أَلَيْسَ غَريبًا أَنْ تَنْطَبِقَ تَفاصيلُ

هذِهِ السِّيرةِ عَلى تَفاصيلِ سِيرةِ حَياتِكِ يا جِين؟ وَلكِنْ فَلْأُكْمِلْ. عِنْدَما بَلَغَت الفَتاةُ الثّامِنةَ عَشْرةَ مِنْ عُمْرِها، تَرَكَتِ المَدْرَسةَ لِتَعْمَلَ مُدَرِّسَةً خاصَّةً لِفَتاةٍ تُدْعى أَدِيل فارِينْز في ثُورنْفيلد هُول.»

قُلْتُ: «أَرْجوكَ يا سَنْجُن لا تُكْمِلْ.»

قالَ: «لا، اِسْمَعيني لِلنِّهايةِ. في ثُورنْفيلد هُول طَلَبَ مِنْها صاحِبُ الدّارِ السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر الزَّواجَ، وَقَبِلَتْ. غَيْرَ أَنَّ الزَّواجَ لَمْ يَتِمَّ، فَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ لِلسَّيِّدِ رُوتْشِسْتر زَوْجةً، وَأَنَّ زَوْجَتَهُ عَلى قَيْدِ الحَياةِ. لا أَعْلَمُ ماذا فَعَلَ رُوتْشِسْتر بَعْدَ أَنِ انْكَشَفَ سِرُّهُ. أَمّا الفَتاةُ، فَقَدْ تَرَكَتْ ثُورنْفيلد بَعْدَ ذلِكَ اليَوْمِ وَلَمْ يُعْثَرْ لَها عَلى أَثَرٍ، بِالرَّغْمِ مِنْ كُلِّ المُحاوَلاتِ الَّتي بَذَلَها السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر لِيَجِدَها. وَقَد أَطْلَعَني عَلى كُلِّ هذِهِ التَّفاصيلِ مُحامٍ في لَنْدَن يُدْعى بريجْز. أَلا تَرَيْنَ أَنَّها قِصَّةٌ عَجيبةٌ يا جِين؟»

سَأَلْتُهُ مُتَلَهِّفَةً: «بِاللهِ عَلَيْكَ خَبِّرْني، أَيْنَ السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر الآنَ؟ وَكَيْفَ حالُهُ؟ هَلْ هُوَ بِخَيْرٍ؟»

أَجابَ سَنْجُن: «أَنا آسِفٌ، فَقَدْ سَبَقَ وَقُلْتُ لَكِ إِنِّي لا أَعْرِفُ عِنْهُ شَيْئًا. وَلكِنْ أَلا تُريدينَ أَنْ تَسْمَعي اسمَ بَطَلَةِ هذِهِ القِصَّةِ؟»

سَأَلْتُ: «هَلْ كَتَبَ السَّيِّدُ بريجْز إِلى السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر؟ هَلْ رَدَّ عَلَيْهِ السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر؟»

كانَ كُلُّ هَمِّي مُنْصَرِفًا إِلى مَعْرِفةِ أَخْبارِ السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر.

أَجابَ سَنْجُن: «نَعَمْ، كَتَبَ بريجْز لِرُوتْشِسْتر، وَلكِنَّ الَّذي رَدَّ عَلى خِطابِهِ كانَتْ سَيِّدةٌ تُدْعى فِيرْفاكْس.»

صَدَقَتْ مَخاوِفي، وَتَأَكَّدْتُ أَنَّ السَّيِّدَ رُوتْشِسْتر تَرَكَ ثُورنْفيلد هُول وَبَدَأَ حَياةَ التَّنَقُّلِ وَعَدَمِ الاسْتِقْرارِ. مِسْكينٌ يا إدْوارد! وَاسْتَمَرَّ سَنْجُن في الحَديثِ قائِلًا: «حَيْثُ إِنَّكِ لَمْ تَسْأَليني عَنِ اسْمِ الفَتاةِ فَسَأُخْبِرُكِ أَنا بِهِ.»

أَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ قِطْعَةَ وَرَقٍ صَغيرةً وَناوَلَها لي، فَوَجَدْتُ أَنَّها رُكْنُ اللَّوْحةِ الَّتي كُنْتُ أَرْسُمُها وَعَلَيْها اسْمي جِين إير. ثُمَّ اسْتَطْرَدَ في الحَديثِ قائِلًا:

«كَتَبَ لي بريجز يَسْأَلُني عَنْ جِين إير، وَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ غَيْرَ جِين إلْيُوت، الاسْمَ الَّذي عَرَفْتُكِ بِهِ. وَلكِنِّي كَثيرًا ما كُنْتُ أَسْأَلُ نَفْسي: مَنْ تكونينَ؟ وَمِنْ أَيْنَ أَتَيْتِ؟ أَنْتِ نَفْسُكِ جِين إير، أَلَيْسَ كَذلِكَ؟»

قُلْتُ: «بَلى أَنا جِين إير، وَلكِنْ قُلْ لي بِرَبِّكَ: إذا كَتَبْتُ لِلسَّيِّدِ بريجْز أَسْتَفْسِرُ عَنِ السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر، فَهَلْ يُوافِيني بِأَخْبارِهِ؟»

قالَ: «لا أَظُنُّ ذلِكَ يا جِين. وَلكِنْ دَعينا مِنْ رُوتْشِسْتر فَعِنْدي لَكِ أَخْبارٌ أَهَمُّ وَأَعْجَبُ. هَلْ تَعْلَمينَ لِماذا أَرْسَلَ لي بريجْز خِطابًا؟»

قُلْتُ: «لا!»

قالَ: «كَتَبَ لِيُخْبِرَني بِوَفاةِ عَمِّكِ جُون إير في ماديرا وَأَصْبَحْتِ أَنْتِ وَريثَتَهُ.»

قُلْتُ: «أَنا؟»

قالَ: «نَعَمْ، لَقَدْ تَرَكَ لَكِ مَبْلَغَ عِشْرينَ أَلْفَ جُنَيْهٍ».

ذَهِلْتُ، وَلَمْ أُدْرِكْ ما كانَ يَقولُ، فَقَدْ حَزِنْتُ جِدًّا عِنْدَ سَماعِ خَبَرِ وَفاةِ عَمِّي. لَقَدْ كانَ هُوَ الشَّخْصَ الوَحيدَ مِنْ أُسْرَتي الَّذي اهْتَمَّ بِمَصيري دونَ أَنْ أَراهُ أَوْ يَراني.

قالَ سَنْجُن: «أَراكِ مُكْتَئِبَةً، أَلا تُريدينَ هذِهِ الثَّرْوَةَ؟»

قُلْتُ: «بَلى أُريدُها.» وَلَمْ أُحاوِلْ أَنْ أُفْصِحَ لَهُ عَنْ عَواطِفي، فَهُوَ لَنْ يَفْهَمَها ثُمَّ سَأَلْتُهُ: «لِماذا كَتَبَ لَكَ بريجْز يا سَنْجُن؟»

قالَ: «إِنَّها حَقًّا قِصَّةٌ عَجيبةٌ، وَسَوْفَ أُحَدِّثُكِ عَنْها فيما بَعْدُ.»

قُلْتُ: «أَوَدُّ أَنْ أَسْمَعَها الآنَ، أَرْجوكَ.»

قالَ: «لا بَأْسَ، هَلْ تَعْرِفينَ أَنَّ اسْمي بِالْكامِلِ هُوَ: سَنْجُن إير ريفَرْز؟»

قُلْتُ: «لا أَعْرِفُ ذلِكَ.» وَأَدْرَكْتُ الحَقيقةَ كُلَّها، وَلكِنِّي تَرَكْتُهُ يُكْمِلُ بَقِيَّةَ حَديثِهِ.

قالَ: «كانَتْ أُمِّي مِنْ أُسْرةِ إير وَلَها أَخوانِ، تَزَوَّجَ أَحَدُهُما الآنِسةَ جين ريد مِنْ غِيتْسهيد، وَالآخَرُ هُوَ جُون إير مِنْ ماديرا. وَكَتَبَ لي بريجْز المُحامي - وَكيلًا عَنْ جُون إير - في أَغُسْطُس الماضي يُخْبِرُني بِوَفاةِ خالي، وَيُعْلِمُني بِأَنَّهُ تَرَكَ كُلَّ ثَرْوَتِهِ لِشَخْصٍ آخَرَ. وَمُنْذُ بِضْعةِ أَسابيعَ وَصَلَني مِنْهُ خِطابٌ آخَرُ يَقولُ إِنَّهُ لَمْ يَعْثُرْ على ذلِكَ الشَّخْصِ، وَلِذلِكَ تُصْبِحُ الثَّرْوةُ لي. ثُمَّ رَأَيْتُ اسْمَكِ عَلى الصُّورةِ الَّتي كُنْتِ تَرْسُمينَها، وَعَلِمْتُ أَنَّكِ الشَّخْصُ الَّذي يَبْحَثُ عَنْهُ بريجْز.»

انْتَهى حَديثُهُ، وَحاوَلَ أَنْ يَنْصَرِفَ فَقُلْتُ: «تَرَيَّثْ قَليلًا حَتَّى أَرى الحَقيقةَ بِوُضوحٍ. هَلْ كانَتْ والِدَتُكَ عَمَّتي أَنا، شَقيقةَ أَبي؟»

قالَ: «نَعَمْ.»

قُلْتُ: «كَمْ أَنا سَعيدةٌ يا سَنْجُن، فَقَدْ وَجَدْتُ أَخيرًا أَهْلًا يُحِبُّونَني وَأُحِبُّهُمْ.»

اِبْتَسَمَ قائِلًا: «حَقًّا إِنَّكِ فَتاةٌ غَريبةٌ يا جِين، مُنْذُ لَحْظةٍ لَمْ تَبْدُ عَلَيْكِ غَيْرُ الكَآبةِ، وَلَمْ تَبْتَهِجي عِنْدَ سَماعِ خَبَرِ الثَّرْوةِ الَّتي آلتْ إِلَيْكِ. وَالآنَ يَكادُ الفَرَحُ يُطيحُ بِعَقْلِكِ عِنْدَ سَماعِ خَبَرِ قَرابَتِنا لَكِ.»

قُلْتُ: «لا يُمْكِنُكَ أَنْ تَفْهَمَ مَشاعِري أَوْ تُقَدِّرَها. فَأَنْتَ لَمْ تَقْضِ حَياتَكَ وَحيدًا مِثْلي.»

تَذَكَّرْتُ أَنَّ الثَّرْوةَ أَصْبَحَتْ لي وَحْدي، وَفَكَّرْتُ في أَوْلادِ عَمَّتي الثَّلاثةِ فَقُلْتُ: «نَحْنُ أَرْبعةٌ، وَلا بُدَّ أَنْ نَقْتَسِمَ الثَّرْوةَ بَيْننا بِالتَّساوي.»

لَمْ يُوافِقْني سَنْجُن في بادِئِ الأَمْرِ، وَلكِنَّهُ بَعْدَ جِدالٍ طَويلٍ اقْتَنَعَ بِرَأْيي، وَقَبْلَ انْصِرافِهِ قالَ: «وَماذا عَنِ المَدْرَسةِ يا جِين؟ هَلْ تُغْلِقينَ أَبْوابَها مُنْذُ الغَدِ؟»

قُلْتُ: «لا، سَأَظَلُّ أَعْمَلُ بِها حَتَّى تَجِدَ مَنْ يَخْلُفُني.»

فَشَكَرَني عَلى ذلِكَ وَانْصَرَفَ.

الْفَصْلُ التّاسِعُ وَالعِشْرونَ

لَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَويلٌ حَتَّى كُنّا قَدِ اقْتَسَمْنا الثَّرْوةَ فيما بَيْنَنا نَحْنُ الأَرْبَعَة، وَأُغْلِقَتِ المَدْرَسةُ بِمُناسَبةِ العامِ الجَديدِ، عَلى أَنْ تَسْتَقْبِلَ النّاظِرةَ الجَديدةَ بَعْدَ انْتِهاءِ الإجازةِ.

وَاسْتَغْنَتْ كُلٌّ مِنْ ماري وَديانا عَنِ العَمَلِ، وَعادَتا إلى بَيْتِهِما. وَأَمْضَيْتُ مَعَهُما أُسْبوعًا في مَرَحٍ وَسَعادةٍ، وَلَمْ يُشارِكْنا سَنْجُن مَرَحَنا هذا، بَلِ اعْتَبَرَهُ مَضْيَعةً لِلْوَقْتِ. وَلَمْ يَعُدْ يَشْغَلُهُ أَمْري الآنَ بَعْدَ أَنْ أَصْبَحْتُ غَنِيَّةً، كَما كانَ يَشْغَلُهُ مِنْ قَبْلُ.

اِنْقَضَتِ الإجازةُ، وَبَقِيَ سَنْجُن مَعَنا في مُور هاوس حَتَّى يَحينَ مَوْعِدُ سَفَرِهِ إلى الهِنْدِ، حَيْثُ كانَ يُزْمِعُ أَنْ يَذْهَبَ مُعَلِّمًا.

بَدَأْتُ وَديانا نَتَعَلَّمُ اللُّغَةَ الأَلْمانِيَّةَ، كَما عُدْتُ إلى رَسْمِ لَوْحاتي مِنْ جَديدٍ. وَكُنْتُ أَذْهَبُ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ في الأُسْبوعِ إلى المَدْرَسةِ لأَزورَ تِلْميذاتيَ السّابِقاتِ، وَلاحَظْتُ عَلى سَنْجُن سُرورَهُ بِهذِهِ الزِّياراتِ. فَقَدْ كانَ يُقْلِقُهُ أَنْ يَرانيَ - عَلى حَدِّ تَعْبيرِهِ - أَقْضي أَيّاميَ دُونَ عَمَلٍ أَوْ فائِدةٍ. وَذاتَ يَوْمٍ، كُنْتُ جالِسةً أَدْرُسُ الأَلْمانِيَّةَ، وَهُوَ مُنْهَمِكٌ يَدْرُسُ الهِنْدُوسْتانِيَّةَ، قالَ:

«لِماذا لا تَدْرُسينَ مَعي الهِنْدُوسْتانِيَّةَ؟ إنَّ ذلِكَ خَيْرُ وَسيلةٍ لِأَتَعَلَّمَها أَنا. فَهَلّا ساعَدْتِني؟»

وَلَمْ أَقْدِرْ عَلى رفْضِ طَلَبِهِ. كانَ مُعَلِّمًا ماهِرًا، وَكُنْتُ كُلَّما تَقَدَّمْتُ خُطْوَةً، طالَبَني بِخُطْوَةٍ أُخْرى.

لَمْ يَغِبْ عَنْ ذِهْنِيَ السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر، وَكُنْتُ قَدْ كَتَبْتُ إلى السَّيِّدِ بريجْز أَسْأَلُهُ عَنْهُ. وَأَخيرًا وَصَلَ مِنْهُ خِطابٌ يَقولُ إِنَّهُ لا يَعْرِفُ عَنْهُ شَيْئًا. فَكَتَبْتُ إلى السَّيِّدَةِ فِيرْفاكْس، وَلكِنِّي لَمْ أَتَلَقَّ مِنْها رَدًّا.

وَفي صَباحِ يَوْمٍ في أَوائِلِ الرَّبيعِ شَعَرْتُ بِانْقِباضٍ، وَبَدأْتُ أَبْكي دُونَ سَبَبٍ، وَكُنْتُ حِينَئِذٍ مَعَ سَنْجُن أَدْرُسُ الهِنْدُوسْتانِيَّةَ؛ فتَوَقَّفْتُ عَنِ الدَّرْسِ، وَنَظَرَ إليَّ، ثُمَّ قالَ: «فَلْنَخْرُجْ لِلتَّنَزُّهِ.» وَعِنْدَما عَرَضْتُ عَلَيْهِ أَنْ أَسْتَدْعيَ ماري وَدَيانا، رَفَضَ وَقالَ: «لا! اليَوْمَ سَنَذْهَبُ وَحْدَنا.»

كانَ الجَوُّ صَحْوًا جَميلًا، وَصَعِدْنا فَوْقَ التَّلِّ الواقِعِ خَلْفَ المَنْزِلِ، وَجَلَسْنا تَحْتَ شَجَرةٍ بِجانِبِ النَّهْرِ لِنَسْتَريحَ.

قالَ سَنْجُن: «جِين، لَمْ يَبْقَ غَيْرُ سِتَّةِ أَسابيعَ عَلى رَحيلي، إذْ تُبْحِرُ السَّفينةُ يَوْمَ العِشْرينَ مِنْ يُونْيه.»

قُلْتُ: «أَرْجُو لَكَ التَّوْفيقَ.»

قالَ: «أَنا سَعيدٌ بِذلِكَ كُلَّ السَّعادةِ، لِمَ لا تَأْتِينَ مَعي؟»

قُلْتُ: «لا أَعْلَمُ يا سَنْجُن.»

قالَ: «نَعَمْ، نَعَمْ سَتَأْتِينَ مَعي إلى الهِنْدِ يا جِين، وتُصْبِحينَ زَوْجَتي.»

قُلْتُ: «أَعْطِني مُهلةً لِأُفكِّرَ، وَأَرْجوكَ أَنْ تَتْرُكَني الآنَ.»

فَكَّرْتُ طَويلًا، ووَجَدْتُ أَنَّ في مَقْدوري أَنْ أُسافِرَ مَعَهُ، وَلكِنْ ما هُوَ شُعوري نَحْوَهُ؟ لَمْ يَكُنْ يُحِبُّني، وَلَمْ أَكُنْ أَشْعُرُ نَحْوَهُ بِالْحُبِّ الَّذي كُنْتُ أَراهُ ضَروريًّا لِلسَّعادةِ الزَّوْجيَّةِ. وَلِذلِكَ قَبِلْتُ أَنْ أَذْهَبَ مَعَهُ لِلْعَمَلِ، وَرَفَضْتُ أَنْ أَكونَ لَهُ زَوْجةً.

قالَ: «أَنْتِ لازِلْتِ تُفَكِّرينَ في رُوتْشِسْتر، وَلكِنْ أُصارِحُكِ أَنَّ رُوتْشِسْتر رَجُلٌ شِرِّيرٌ، وَأَنْتِ أَيْضًا شِرِّيرةٌ، لِأَنَّكِ ما زِلْتِ تُحِبِّينَهُ بَعْدَ أَنِ انْكَشَفَ لَكِ أَمْرُهُ. لَقَدْ قُلْتُ لَكِ كُلَّ ما أُريدُ أَنْ أَقولَهُ.»

الْفَصْلُ الثَّلاثُونَ

لَمْ أَتَحَدَّثْ مَعَ سَنْجُن بَعْدَ ذلِكَ حَتَّى اللَّيْلَةِ السّابِقَةِ لِيَوْمِ سَفَرِهِ. كانَ سَيَنْهَضُ مُبَكِّرًا في اليَوْمِ التّالي، فَوَدَّعْناهُ في المَساءِ وَبَيْنَما كُنْتُ أَهُمُّ بِالِانْصِرافِ وَاللَّحاقِ بِماري وَدَيانا اسْتَوْقَفَني قائِلًا: «أَنا آسِفٌ إِنْ كُنْتُ آلَمْتُكِ بِحَديثي يا جين، وَلكِنْ بِداخِلي شُعُورٌ قَوِيٌّ أَنَّنا سَنَتَزَوَّجُ. هَلْ يُمْكِنُ أَنْ تُخْبِريني بِقَرارِكِ النِّهائِيِّ الآنَ؟»

فَجْأَةً شَعَرْتُ بِانْقِباضٍ، وَسَمِعْتُ صَوْتًا في الظَّلامِ يُنادي: «جِين! جِين!» كانَ صَوْتَ إِدْوارد رُوتْشِسْتر، وَقُلْتُ في نَفْسي: «لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ، اِنْتَظِرْني.» وَأَعْلَنْتُ لِسَنْجُن أَنّي لَنْ أَذْهَبَ لِلْهِنْدِ، وَلَنْ أَتَزَوَّجَهُ، وَصَمَّمْتُ عَلى أَنْ أَبْحَثَ عَنْ رُوتْشِسْتر حَتَّى أَجِدَهُ.

الْفَصْلُ الحادي وَالثَّلاثونَ

في اليَوْمِ التّالي اسْتَيْقَظْتُ قَبْلَ بُزوغِ الشَّمْسِ، وَنَهَضْتُ وَحَزَمْتُ بَعْض المَتاعِ اسْتِعْدادًا لِلرَّحيلِ، فَقَدْ عَزَمْتُ عَلى العَوْدَةِ إلى ثُورنْفيلد. وَشَعَرْتُ كَأَنّي طِفْلٌ مُبْتَهِجٌ بِعَوْدَتِهِ إلى البَيْتِ في إجازَتِهِ المَدْرَسِيَّةِ.

عَلِمْتُ مِنْ ماري وَديانا - أَثْناءَ تَناوُلِنا طَعامَ الإفْطارِ - بِأَنَّ سَنْجُن قَدْ رَحَلَ. وَغادَرْتُ مُورهاوس في السّاعةِ الثّانيةِ بَعْدَ ظُهْرِ يَوْمِ الثُّلاثاءِ، وَأَخَذْتُ المَرْكَبَةَ إلى مِيلْكُوت وَوَصَلْتُها صَباحَ يَوْمِ الخَميسِ التّالي. وَنَزَلْتُ في فُنْدُقٍ.



تَرَكْتُ أَمْتِعَتي في الفُنْدُقِ، وَسِرْتُ في الطَّريقِ المُؤَدِّي إلى ثُورنْفيلد. وَلاحَتْ لِيَ الأَشْجارُ الَّتي تُحيطُ بِالمَنْزِلِ عَنْ بُعْدٍ، وَلكِنْ عِنْدَ اقْتِرابي هالَني ما رَأَيْتُ. لَمْ أَرَ البَيْتَ، وَلكِنِّي رَأَيْتُ أَطْلالًا مُتَفَحِّمَةً تَنْبُتُ حَوْلَها الحَشائِشُ البَرِّيَّةُ، وَقَدِ الْتَهَمَتِ النِّيرانُ كُلَّ النَّوافِذِ وَالأَبْوابَ وَسَطْحَ البَيْتِ. ماذا حَدَثَ؟ وَأَيْنَ إدْوارد وَأَدِيل وَالسَّيِّدَةُ فِيرْفاكْس وَالخَدَمُ؟ هَلْ قَضَتْ عَلَيْهِمُ النّارُ؟

عُدْتُ إلى الفُنْدُقِ وَطَلَبْتُ طَعامًا، وَعِنْدَما أَحْضَرَتْهُ الخادِمَةُ سَأَلْتُها: «هَلْ تَعْرِفينَ ثُورنْفيلد هُول؟»

أَجابَتْ: «نَعَمْ، خَيْرَ المَعْرِفَةِ، فَقَدْ كُنْتُ خادِمَةً هُناكَ قَبْلَ وَفاةِ السَّيِّدِ رُوتْشِسْتر.»

صَرَخْتُ مُنْزَعِجَةً: «هَلْ ماتَ السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر؟»

أَجابَتْ: «أَنا أَعْني السَّيِّدَ رُوتْشِسْتر العَجوزَ، وَالِدَ السَّيِّدِ إدْوارد رُوتْشِسْتر.»

تَنَفَّسْتُ الصُّعَداءَ وَسَأَلْتُها: «أَيْنَ السَّيِّدُ إدْوارد رُوتْشِسْتر الآنَ؟ أَهُوَ مُقيمٌ في ثُورنْفيلد هُول؟»

قالَتْ: «لا يا سَيِّدَتي، يَبْدو لي أَنَّكِ غَريبَةٌ عَنْ هذِهِ الدِّيارِ، وَلَمْ تَسْمَعي عَنِ الحَريقِ الهائِلِ الَّذي شَبَّ في ثُورنْفيلد هُول في الخَريفِ الماضي وَرَأَيْتُهُ بِنَفْسي. لَقَدْ قَضَتِ النِّيرانُ على كُلِّ شَيْءٍ في الدّارِ.»

سَأَلْتُ: «كَيْفَ بَدَأَ الحَريقُ؟ هَلْ تَعْلَمينَ؟»

أَجابَتْ: «تَضارَبَتِ الأَقْوالُ في ذلِكَ. فَقَدْ كانَ هُناكَ في ثُورنْفيلد سَيِّدَةٌ مَجْنونةٌ لَمْ يَعْلَمْ أَحَدٌ بُوجودِها حَتَّى العام الماضي، حينَ حَضَرَتْ لِلْمَنْزِلِ مُرَبِّيَةٌ خاصَّةٌ لِلْفَتاةِ الفَرَنْسِيَّةِ الَّتي كانَتْ تُقيمُ هُناكَ. وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ النّاسِ يَرى تِلْكَ المُرَبِّيَةَ بِهِيَّةَ الطَّلْعةِ وَلكِنَّ السَّيِّدَ إِدْوارد رُوتْشِسْتر وَقَعَ في حُبِّها.»

وَراحَتْ تَقُصُّ عَلَيَّ تَفاصيلَ المَأْساةِ الَّتي عِشْتُها، ثُمَّ قالَتْ: «جْريس بُوول امْرَأَةٌ طَيِّبَةٌ إِلّا أَنَّها كانَتْ تُهْمِلُ أَحْيانًا حِراسةَ هذِهِ المَرْأَةِ المَجْنونةِ فَتُفْلِتُ مِنْها وَتَقومُ بِأَعْمالٍ خَطِرةٍ وَمُؤْذيةٍ. وَيُقالُ إِنَّهُ بَعْدَ نَحْوِ شَهْرَيْنِ مِنْ رَحيلِ المُرَبِّيَةِ، أَفْلَتَتِ المَجْنونةُ وَأَشْعَلَتِ النِّيرانَ في فِراشِ المُرَبِّيَةِ، وَسَرْعانَ ما امْتَدَّتِ النِّيرانُ إِلى باقي الدّارِ.»

سَأَلْتُ: «وَهَلْ كانَ السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر مَوْجودًا أَثْناءَ الحَريقِ؟»

أَجابَتْ: «نَعَمْ، بَعْدَ أَنْ بَحَثَ كَثيرًا عَنِ المُرَبِّيَةِ وَلَمْ يَجِدْها عادَ إِلى ثُورنْفيلد هُول. وَلَقَدْ كانَ أَثْناءَ الحَريقِ مِثالًا حَيًّا لِلشَّجاعةِ وَالشَّهامةِ؛ فَقَدْ كانَ يَقْتَحِمُ النِّيرانَ لِيُخَلِّصَ مَنْ بِداخِلِ الدّارِ، وَتَمَكَّنَ مِنْ إِنْقاذِ الجَميعِ إِلّا المَرْأَةَ المَجْنونةَ. لَقَدْ وَقَفَتِ المَرْأَةُ البائِسةُ عَلى السَّطْحِ تُهَلِّلُ فَرِحةً، فَصَعِدَ إِلَيْها وَاتَّجَهَ نَحْوَها يُناديها، إِلّا أَنَّها لَمْ تَلْتَفِتْ إِلَيْهِ وَقَفَزَتْ مِنْ فَوْقِ السَّطْحِ وَهَوَتْ إِلى الأَرْضِ جُثَّةً هامِدةً. وَلَقَدْ نَجا الجَميعُ سالِمينَ إِلّا السَّيِّدَ رُوتْشِسْتر المِسْكينَ. فَقَدْ أَصابَتِ النّارُ عَيْنَيْهِ فَلَمْ يَعُدْ

يَرى، وَيُخْشى أَلّا يعودَ إِلَيْهِ بَصَرُهُ أَبدًا. كَذلِكَ فَقَدَ ذِراعَهُ الأَيْسَرَ وَهُوَ يُقيمُ الآنَ في فيرِنْدِين، في مكانٍ مُنْعَزِلٍ يَبْعُدُ عَنْ هُنا نَحْوَ ثَلاثينَ مِيلًا. وَيَقومُ بِخِدْمَتِهِ زَوْجانِ عَجوزانِ – ماري وَجُون – وَهُما مِنَ الخَدَمِ السّابِقينَ، وَيَرْفُضُ السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر أَنْ يُقابِلَ أَحدًا غَيْرَهُما.»

سَأَلْتُ: «هَلْ تُوجدُ هُنا مَرْكَبَةٌ؟ أُريدُ أَنْ أَذْهَبَ إِلى فيرِنْدِين الآنَ.»

الْفَصْلُ الثّاني وَالثَّلاثونَ

كانَتِ الغابَةُ الَّتي تَقَعُ فيها الدّارُ الَّتي أَقْصِدُها كَثيفَةً مُظْلِمَةً. تَرَكْتُ العَرَبةَ عِنْدَ طَرَفِ الغابَةِ وَانْطَلَقْتُ عَلى قَدَمَيَّ وَسْطَ أَشْجارٍ باسِقَةٍ مُتَشابِكَةٍ حَجَبَتْ عَنِّي الضَّوْءَ.

أَخيرًا وَصَلْتُ الدّارَ، وَبَيْنَما أَنا واقِفَةٌ مُتَرَدِّدَةٌ فُتِحَ البابُ، وَخَرَجَ مِنْهُ السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر يَمْشي بِبُطْءٍ وَحَذَرٍ. بَدَأَ المَطَرُ يَتَساقَطُ، وَبَعْدَ لَحْظَةٍ أَقْبَلَ جُونْ قائِلًا: «خُذْ ذِراعي يا سَيِّدي.»

فَنَهَرَهُ إِدْوارد قائِلًا: «اِذْهَبْ عَنِّي.»

تَرَكَهُ الرَّجُلُ، وَبَدَأَ إِدْوارد يَتَّجِهُ بِبُطْءٍ نَحْوَ بابِ الدّارِ. أَمّا أَنا فَأَسْرَعْتُ إِلى البابِ الخَلْفِيِّ وَطَرَقْتُهُ. وَفَتَحَتْ لي ماري وَنَظَرَتْ إِلَيَّ كَأَنَّني شَبَحٌ وَقالَتْ: «أَهذِهِ أَنْتِ حَقًّا يا آنِسةُ إِير؟ ماذا تَفْعَلينَ هُنا في هذا الوَقْتِ المُتَأَخِّرِ مِنَ المَساءِ؟»

بَعْدَ أَنْ دَخَلْتُ، أَخْبَرْتُ ماري وَجُون بِكُلِّ ما حَدَثَ، وَطَلَبْتُ أَنْ أَقْضِيَ اللَّيْلَةَ عِنْدَهُمْ. وَبَيْنَما نَحْنُ نَتَحَدَّثُ سَمِعْتُ رَنينَ جَرَسٍ، وَقالَتْ ماري: «هذا هُوَ السَّيِّدُ رُوتْشِسْتر يُريدُ شَيْئًا.»

قُلْتُ: «أَرْجو يا ماري أَنْ تُعْلِني عَنْ وُجودِ زائِرٍ يَطْلُبُ مُقابَلَتَهُ دونَ أَنْ تُخْبِريهِ بِاسْمي.»

وَبَعْدَ دَقائِقَ عادَتْ تَقولُ: «إِنَّهُ يَرْفُضُ المُقابَلَةَ ما لَمْ أُخْبِرْهُ بِاسْمِكِ.» وَكانَتْ تَمْلَأُ لَهُ كُوبَ ماءٍ فَأَخَذْتُهُ مِنْها وَقُلْتُ: «اِسْمَحي

لي أَنْ أُقَدِّمَ لَهُ هذا بِنَفْسي.» وَأَرْشَدَتْني إلى بابِ الحُجْرةِ فَدَخَلْتُ.

هَبَّ الكَلْبُ بيْلُوت عِنْدَ دُخولي وَأَخَذَ يَنْبَحُ وَيَقْفِزُ مُرَحِّبًا بي، فَوَضَعْتُ كُوبَ الماءِ على المِنْضَدةِ قائِلةً: «اِهْدَأْ يا بيْلُوت.»

اِلْتَفَتَ إلَيَّ إدْوارد في حُزْنٍ وَأَسًى بِعَيْنَيْنِ تَتَحَرَّكانِ وَلا تَرَيانِ وَقالَ:



«أَعْطِني الماءَ يا ماري، هذا هُوَ أَنْتِ، أَلَيْسَ كَذلِكَ؟»

قُلْتُ: «نَعَمْ، إِنَّ ماري في المَطْبَخِ.»

مَدَّ يَدَهُ لِيَلْمِسَني وَقالَ: «إِذًا مَنْ أَنْتِ؟ تَكَلَّمي!»

قُلْتُ: «لَقَدْ عَرَفَني بَيْلُوت، كَذلِكَ عَرَفَني جُون وماري.»

قال: «مَنْ أَنْتِ؟ هَلْ أَنا في حُلْمٍ؟ أَمْ هَلْ أُصِبْتُ بِالْجُنونِ؟ اقْتَرِبي مِنِّي حَتَّى أَلْمِسَكِ.»

مَدَدْتُ إِلَيْهِ يَدي فَأَمْسَكَها وَراحَ يَتَحَسَّسُها وَيَتَحَسَّسُ مَلامِحَ وَجْهي وَشَعْري، ثُمَّ قالَ بِهُدوءٍ: «نَعَمْ هذِهِ أَنْتِ يا جِين؟ لا أُصَدِّقُ أَنِّي في يَقَظةٍ. هذِهِ أَنْتِ حَقًّا؟ أَيْنَ كُنْتِ؟ كَيْفَ حالُكِ؟»

قُلْتُ: «نَعَمْ، هذِهِ أَنا حَقًّا. وَأَنا بِخَيْرٍ يا سَيِّدي وَالحَمْدُ للهِ. عِنْدي الآنَ مِنَ المالِ ما يَكْفي حاجَتي وَيُغْنيني عَنِ العَمَلِ. فَقَدْ ماتَ عَمِّي في مادِيرا وَتَرَكَ لي كُلَّ ثَرْوَتِهِ.»

قالَ ضاحِكًا: «لا بُدَّ أَنَّ هذِهِ حَقيقةٌ لا حُلْمٌ، فَلَمْ يَسْبِقْ لي أَنْ حَلَمْتُ بِمالٍ أَوْ ثَرْوةٍ. وَالآنَ وَقَدْ أَصْبَحْتِ مِنَ الأَغْنياء، لا بُدَّ أَنْ يَكونَ لَكِ أَصْدِقاءُ كَثيرونَ، فَماذا تُريدينَ مِنْ غَبِيٍّ ضَريرٍ مِثْلي؟»

قُلْتُ: «أُريدُ أَنْ أَكونَ بِجانِبِكَ، وَلَنْ أَتْرُكَكَ بَعْدَ الآنَ.»

قالَ: «جِين! جِين يا أَحَبَّ مَخْلوقٍ لَدَيَّ، هَلْ تَتَزَوَّجينَني؟ وَهَلْ

تَرْضينَ بِشَخْصٍ ضَعيفٍ ضَريرٍ قَبيحِ المَنْظَرِ مِثْلي أَنْ يَكونَ لَكِ زَوْجًا؟»

قُلْتُ: «لَعَلَّكَ تَتَذَكَّرُ بِأَنِّي لَمْ أَرَكَ بَهِيَّ الطَّلْعَةِ في أَيِّ وَقْتٍ. وَالآنَ لا أَرى فيكَ عَيْبًا سِوى شَعْرِكَ الطَّويلِ الَّذي يَجْعلُكَ كَالْأَسَدِ، وَهذا عَيْبٌ يَسْهُلُ إِصْلاحُهُ. وَالآنَ فَلْنَجْلِسْ وَنَتَناوَلْ بَعْضَ الطَّعامِ.»

تَناوَلْنا العَشاءَ مَعًا، وَكُلٌّ مِنّا سَعيدٌ بِلِقاءِ الآخَرِ، وَأَرْجَأْتُ الكَلامَ عَنِ الأَحْداثِ الَّتي وَقَعَتْ لي حَتّى اليَوْمِ التّالي.

في اليَوْمِ التّالي نَهَضَ إِدْوارد مُبَكِّرًا وَبَدَأَ يَسْأَلُ ماري عَنّي؛ وَارْتَدَيْتُ مَلابِسي وَذَهَبْتُ إِلَيْهِ، وَبَعْدَ تَناوُلِ طَعامِ الإِفْطارِ خَرَجْنا نَتَنَزَّهُ مَعًا.

قالَ: «مِنَ اليَوْمِ سَتَكُونينَ أَنْتِ عَيْنَيَّ اللَّتَيْنِ أُبْصِرُ بِهِما.»

أَمْضَيْنا اليَوْمَ في الخَلاءِ وَأَخْبَرْتُهُ بِكُلِّ ما حَدَثَ لي أَثْناءَ غِيابي عَنْهُ، وَاتَّفَقْنا عَلى الزَّواجِ.

الْفَصْلُ الثّالِثُ وَالثَّلاثونَ

تَزَوَّجْنا، وَلَمْ يَحْضُرْ حَفْلَ زَواجِنا سِوى رَجُلِ الدِّينِ وَزَوْجَتِهِ. وَعِنْدَما عُدْنا إلى البَيْتِ وَأَخْبَرْنا جُون وماري بِالْخَبَرِ، أَبْدَيا سُرورَهُما وقالا إِنَّهُما كانا يَتَوَقَّعانِ ذلِكَ، وَتَمَنَّيا لَنا التَّوْفيقَ وَالهَناءَةَ.

كَتَبْتُ خِطابًا إلى مُور هاوس وَشَرَحْتُ ما حَدَثَ بِالتَّفْصيلِ. وَبَعْدَ أَيّامٍ حَضَرَتْ ديانا لِزِيارَتِنا، أَمّا سَنْجُن فَكَتَبَ رِسالةً بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ لَمْ يَذْكُرْ فيها شَيْئًا عَنْ زَواجِنا، بَلْ كُلُّ ما كَتَبَهُ كانَ بِخُصوصِ عَمَلِهِ في الهِنْدِ. وَاسْتَمَرَّ تَبادُلُ الرَّسائِلِ بَيْنَنا فيما بَعْدُ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ كُلَّ عامٍ.

كانَتْ أَديل في المَدْرَسةِ وَذَهَبْتُ لأَزورَها، وَسَعِدَ كِلانا بِهذا اللِّقاءِ، إلّا أَنَّ المَدْرَسةَ الَّتي كانَتْ بِها ذَكَّرَتْني بِمَدْرَسةِ لُووُد مِنْ حَيْثُ سُوءُ المَعيشةِ وَالنِّظامِ. وَعِنْدَما عَلِمَ إدْوارد بِذلِكَ نَقَلْناها إلى مَدْرَسةٍ أَفْضَلَ وَأَقْرَبَ، حَيْثُ كُنْتُ أَذْهَبُ لِزِيارَتِها عِدَّةَ مَرّاتٍ خِلالَ السَّنةِ، وَتَحْضُرُ هِيَ في الإجازاتِ لِتَقْضيَها مَعَنا. وَلَمّا أَتَمَّتْ دِراسَتَها بِنَجاحٍ عَمِلَتْ مُدَرِّسةً.

لَقَدْ مَضى الآنَ عَشْرُ سَنَواتٍ عَلى زَواجِنا، وَنَحْنُ نَعيشُ هانِئَيْنِ مُتَحابَّيْنِ. وَقَدْ بَدَأَ نَظَرُ إدْوارد يَتَحَسَّنُ تَدْريجيًّا، وَذَهَبْنا إلى أَحَدِ أَطِبّاءِ العُيونِ المَشْهورينَ في لَنْدن لِلاِسْتِشارةِ والعِلاجِ. وَاسْتَرَدَّ إدْوارد بَصَرَهُ كامِلًا في إحْدى عَيْنَيْهِ، وَعِنْدَما رُزِقْنا بِطِفْلِنا الأَوَّلِ ضَمَّهُ إلى صَدْرِهِ أَمامَ نُورِ عَيْنِهِ، وَرَأى بِنَفْسِهِ الشَّبَهَ القَوِيَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ طِفْلِهِ.

الروايات المشهورة

١ ــ جين إير	٤ ــ دراكــولا
٢ ــ فرانكنشــتاين	٥ ــ لورنــا دون
٣ ــ مونفلــيت	٦ ــ دكتور جيكل ومستر هايد

مكتبة لبنان

ساحة رياض الصلح - بيروت

رقم مرجع كمبيوتر 01 C 198 101

